

كيف ورثنا الأميّة؟

أسس الحضارة وعوامل السقوط

يحيى محمود ساعاتي

أستاذ مشارك في قسم المكتبات والمعلومات

كلية العلوم الإجتماعية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار العلوم للطباعة والنشر

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

كيف ورثنا الأميّة؟

أسس الحضارة وعوامل السقوط

يحيى محمود ساعاتي

أستاذ مشارك في قسم المكتبات والمعلومات

كلية العلوم الاجتماعية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار العلوم للطباعة والنشر

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



تقـــديـــم

هذه محاولة لاستكشاف مسار السقوط، بعد رحلة حضارة حلقت على جناحي العلم والعمل، طرحت الجانب الأكبر منها في حلقات نشرت في جريدة الرياض.

ليس كل ما فيها صواب بالضرورة.

وليست هي رؤيـة خلصت عن تجربة وقراءات واسعة... بل مجرد تصورات بسيطة جاءت ناتج قراءات غير متعمقة.

مسار السقوط... مهـد له قبـول السكون والـدعة من الإنسان... بعد أن أحكم الولوج في دروبه الملتوية جحافل الدراويش وأدعياء التصـوف (ولن نقول الصـوفية من الـزهاد والعباد) الذين راق لمستفيدين صنيعهم فسخروا قواهم في تبني ضلالاتهم.

جاء الدراويش يركبون موجة دجل يستغرقون فيها ذواتهم، يستمتعون بالاسترخاء في حلقات انسلاخ عن همة الإنسان الذي هو مطالب في الأصل بتعمير الكون والاستفادة من قدراته في تحقيق حياة كريمة له ولمجتمعه.

واستغل المستفيدون موجات الدروشة فغذوها ورسخوا من جذورها فشاعت وذاعت فانتشرت مقابر ومزارات يطاف بها... ويكتفى بالطلب من أصحابها فالفرج معقود باستجاباتهم، وركنت النفوس وتهاوت في أوحال الضعة تقبل كل شيء.. ذيولها هي التي تسم اليوم ملامح التقاعس والاستكانة وعدم المبالاة، فالهم الأكبر أن أعطنا خبزنا اليوم... ودعنا نعيش حياتنا كما يراد لها أن تكون.

نهاية الإشراق الحضاري... قطيع من الدراويش يطوفون في حلقات الذكر يرفعون الدعاء ويستغيثون بالأموات وينصاعون للواقع هروباً من مواجهة الانحدار واستسلاماً للظروف.

المحتويات

التصنيف:

بمقاييس العصر الذي نحن فيه..

وبمعاييره الحضارية، جعل العالم العربي بأكمله ومعه بلاد العالم الإسلامي في مجموعة دول العالم الثالث، أو كما يسمى الجميع أحياناً بالدول النامية، باعتبارها مجموعة من الدول التي عاشت في شيء من التخلف ردحاً من الزمان، وهي تسعى نحو سلم الحضارة، بعضها بخطى حثيثة وبعضها الآخر بخطى متعثرة.

ومصطلح الدول النامية أو العالم الثالث، هو مصطلح مطاطي يمتد ليحيط بكل دول العالم مستثنياً دول أوروبا الغربية وأميركا الشمالية واليابان.

والواقع أنه لا خيار لنا أن نكون في مجموعة العالم الثالث، لأن هذا هو الحق، فالنقلة الحضارية التي ترتكز أساساً على الجهد المعرفي المتطور، هي الهوة السحيقة التي تفصل بين

العالمين: النامي والمتطور، والقضية ليست في المظهر المادي، وإلا فإننا نستطيع أن نخرج بعض دول العالم الثالث ونلحقها بالعالم المتطور، لوجود التشابه في المعمار ووسائل الاتصال.. وحتى أنماط من إفرازات التقنية الحديثة جداً.

الحاجز:

والحاجز الحقيقي بين العالمين هو حاجز معرفي ليس غير.

هناك نجد تلاحقاً في النقلات التطويرية الناتجة عن العلم والاكتشاف الذي هو ثمرة لعمليتي التعلم والتعليم مرتجعة لتغذيتها.. وتتوالى النظريات.. وتعجز مقدرة الإنسان عن ملاحقة ما يكتب في إطار تخصصي واحد، لأن ذلك يقدر بعشرات الآلاف من البحوث العلمية المستندة على تجربة أو تنظير أو استقصاء لكتابات متناثرة تجمع آراء جديدة من طلابها، وهو ما دفع إلى الركون بشكل تام على الجهد الآلي المستثمر في أجهزة الحاسب الالكتروني لتوفير الوقت، ولرصد أكبر قدر ممكن مما يكتب، ليتاح للراغب في تقديم بحث جديد، أو تناول قضية لها صلة ببحث سابق أن يصل إلى مراده في وقت ميسر. وهنا نجد أن المكتبات ومراكز المعلومات تؤدي دوراً أساسياً في عمليتي اللحاق والمتابعة، وتؤدي كذلك دوراً أساسياً في عملية الوصول إلى المادة المعرفية المطلوبة، وتوفيرها بشتى الوسائل

الآلية والبشرية، وأمر المكتبة مع التطور الغربـي، الذي هو منطلق الحضارة المعاصرة يلحظ فيه التلازم التام. . والقفز الحضاري جاء من خلال الاعتناء الشديد بالمكتبـات، من حيث تكوين المجموعات والتنظيم وتيسير الخدمات فيها للمستفيدين.

وليس الحديث هنا هو عن واقع الحضارة أو دور المكتبة، بل هو رغبة في كشف أسباب التخلف رغم صلابة البناء الفكري والمعرفي للعالم العربـي والإسلامي الذي استمر قروناً طوالاً.

كيف تطور البناء حتى اشتد وتجذر ووقف أمام كل ضروب التدمير فترة زمنية طويلة؟

ما هي أنماطه الشكلية؟

كيف كان سقوطه ولماذا؟

وليس النقاش هنا إلا اجتهادات قد تكون خاطئة. . ولعل بعضها يكون على صواب.

الركائز بين الحاضر والماضي:

إن المقارنة بين بداية حضارة العصر. . ومن ثم تطورها، تبرز أن الاهتمام بمركزة المعرفة، في مكان تستقي منه وتنتشر من خلاله، يعد التنظيم القاعدي الذي اتبع في تشييـد الحضارة العربية الإسلامية منذ نشأتها الأولى.

التمركز في حلقات الدرس في المساجد.. تقدم البدايات.. لم تكن فكرة المدرسة المستقلة المتكاملة في تكوينها قد ظهرت خلال القرون الثلاثة الأولى. ومع ذلك تفاعلت حركة العلم في أروقة المساجد والجوامع.. ونشط التلاحم بين معطين ومتلقين.. فكانت بعض الحلقات تتجاوز حدود مكانية الدرس إلى ما هو أبعد بمسافات، فأجبر ذلك على الأخذ بمبدأ الترديد، إذ يتحدث الشيخ أو العالم فينقل طالب وينقل طالب آخر حتى يسمع كل من يتلقى في الحلقة إلى أقصاها.

ولم يتردد بعض العلماء في نقل الدرس إلى منازلهم أو حتى إلى باحات واسعة يكون فيها لقاء، ولنا أن نتصور مئات الأشخاص يكتبون وينقلون ويتناقلون ما أخذوه أو حصلوا عليه، وفي الوقت الذي يتوسم فيه العالم نباهة عند بعضهم ليصبحوا خاصته يرضى عن نقلهم ويثبت إجازته، إما كتابة أو مشافهة ولهم بعدّ ذلك أن يشيعوه بين بقية التلاميذ.

المكتبة:

إذن كانت حركة الانتشار العلمي كبيرة وكاسحة منذ فجر التاريخ الإسلامي، استوعبتها حلقات الدرس في المساجد والجوامع وتعدت إلى أماكن أخرى.. وبدأ التفكير في الكتاب ليكون وعاء للمعرفة الأصلية والمنقولة..

فخالد بن يزيد.. حفيد الصحابي والخليفة الأموي الأول

معاوية بن أبـي سفيان، يهتم بعلوم اليونان وغيرهم ممن سبق إلى التأليف والكتابة المدونة وكوّن مكتبة، بل لعل غيره عمل مثله، وهو ما دفع بـ (روث ماكنسون) إلى وضع دراسة عن المكتبات في العصر الأموي[1].

ويبرز التوافق كبيراً هنا في الربط بين المعرفة المنظمة وقيام المكتبات منذ مئات السنين عند العرب والمسلمين، ومع بداية النهضة الأوروبية الحديثة.

الصورة الرائعة هنا:

أن المكتبة سبقت قيام المدرسة في التاريخ العربـي الإسلامي، ويقصد هنا الاستقلالية في المكان بالدرجة الأولى. صحيح أن الجوامع والمساجد كما أشرنا ــ كانت مدارس ولكن في غير تنظيم، بينما بدأت المكتبة مستقلة بناء منذ عصر يعود إلى القرن الأول.

ووجود المكتبة أو التفكير في إنشائها يؤكد وجوداً سابقاً لمصنفات ومؤلفات مكتوبة تستحق أن تجمع في مكان واحد.. ويعني أيضاً أن هناك قراء يرغبون في مطالعتها.. ويعني أن الأمية لم تكن مشكلة تقف عائقاً أمام القفز إلى عالم الحرف المكتوب.

---

(١) Mackensen, Ruth. S «Arabic books and libraries in the Umayyad Period» American Journal of Semetic Languages and Literatures 23, 24 (1936-1937) pp. 114-124.

تستخزي الصورة المعاصرة..

وتنسحب خجلاً أمام عظمة القرون الماضية..

ليس أمراً جيداً التباكي على الماضي..

وهذا ليس بكاء بقدر ما هو تذكير ورغبة في معرفة السبب لأن نكون اليوم من العالم الثالث.

تبهرنا أرقام مجموعات المكتبات العامة في العالم الصناعي التي تصل إلى خانة الملايين.

ويبهرنا انتشارها حتى أن القرى لا تخلو منها.. وإن صعب الأمر كانت المكتبات السيارة تحمل الكتب وغيرها من أوعية المعرفة، لتقدمها لسكان المناطق النائية أو للمجتمعات القليلة المتناثرة التي لا تستحق عددياً أن تشكل لها مكتبات مستقلة.

وفي المقابل نجد أشباه مكتبات.. حتى في أكبر العواصم الحالية في العالم الثالث.. أبنية.. تجتر قديماً من الكتب.. تعاني من ضعف في الخدمة ليس قيامها إلا نوعاً من التشبه الظالم بواقع الغرب.

مكتبة عامة في أي مدينة من مدن العالم الثالث تئن تحت وزر الاسترخاء للواقع.

الكتاب.. يمثل وسيلة لإذهاب الملل وإشباع رغبة في

إزهاق الثواني الكسولة والمكتبة مؤسسة لتزجية وقت الفراغ قد يتمدد الأفراد فيها طولاً وعرضاً ليس بالضرورة بأجسادهم ولكن بعقولهم.

وفي المقابل نجد التطلع والتوثب المتلاحقين للمكتبة في مدينة مثيلة في العالم الغربي، فهي لم تقم أصلاً إلا لتكون طريقاً رئيسياً لدعم البناء المعرفي، ولتشكيل قاعدة راسخة، تختزن أرففها ما يبتكر ويؤلف، لتعد لمن يسترجع، وتنظم لمن يأتي راغباً في تحصيل واستزادة وكشف لما وجد أو طرأ في مجاله التخصصي أو غير ذلك مما يستهويه.

فَلِمَ المكتبة؟؟

وَلِمَ الاهتمام بالكتاب؟

هذه الصورة البشعة للتراخي والترهل اللذين أصابا الوضع الخاص بالمكتبات في العالم العربي والإسلامي، على عكس ما هي عليه في العالم المتقدم الذي وصل إلى أرقى درجات الحضارة من خلال الإيمان بدور المعرفة المطلقة التي تعين على بناء فكر الإنسان والتي تمثل المكتبة مركزها ومقرها.

التناقض في الصورة:

يدفع إلى التساؤل.

كيف وصل الغرب إلى القناعة بأهمية المكتبة.

وكيف أغفلنا نحن هذه الأهمية بحيث لم نعد نقيم وزناً لها.

لا ننكر أن هناك مكتبات.

ولكن تظل القضية تكمن في:

أي مكتبات.. وأي خدمة.. وأي نتيجة..

والتناقض في الصورة التي يبرزها الترهل والخزي للمكتبة في العالم الثالث ــ ويهمنا هنا العربـي والإسلامي منه ــ يجبرنا على أن نعود إلى الماضي.

هل هذا الترهل جاء من الماضي؟

هل كان ذلك الماضي غفلاً عن القناعة بقيمة المكتبة؟

المؤكد أن كثرة كاثرة تعتقد أن السبب هو تأصل روح العناية بالمكتبة والكتاب في العالم الغربـي.. وعدم الاكتراث بهما في العالم العربـي الإسلامي.

فكان أن ورثنا هذا «عدم الاكتراث».

المؤسف أن تكون الصورة على عكس ما يعتقد.

فالمكتبة لم تكن تراثاً غربياً.

لأن الغرب ما عرفها بوضعها القوي، وما أدرك قيمتها إلا مع

نهضته المتأخرة، في حين كانت هي كل شيء في حياة الإنسان العربي في قديم الزمان..

منـــذ البـــدء..

في زمن موغل في القدم يعود إلى بدايات تاريخ الإسلام.

كانت مكتبـــة..

وكانت عناية بالكتاب..

وكان إدراك لقيمة المعرفة.

إن ما عمله عبد الحكم الجمحي.. عندما أسس مكتبة عامة في مكة المكرمة في القرن الأول الهجري يعد مثالاً رائعاً للتوجه الثقافي، والرغبة في إشاعة العلم والمعرفة. وما أقدم عليه عندما جعل مع المكتبة ما يسهم في استقطاب الناس إليها وجذبهم إلى الاستفادة منها بأن وضع مجموعة من الألعاب[٢]، وكأنما هو في ذلك القرن البعيد يفكر بعقلية منظري الثقافة الغربية.. في كل مكتبة عامة.. عوامل مساعدة ترفع من فعاليتها في الجذب: سينما، فديو.. ألعاب.. حتى وسائل تسلية للأطفال، فالطفل قد يدفع بوالده إلى المجيء...

---

(٢) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) / الأغاني بتصحيح أحمد الشنقيطي. ــ القاهرة: أحمد أفندي ساسي المغربي (مطبعة التقدم)، ١٣٢٣هـ، ٤/ ٥١.

وفي أواخر القرن الثاني الهجري تظهر مؤسسة علمية ضخمة عمادها المكتبة، وهي أكثر ما اشتهرت به بل لعلها هي كيانها الوحيد، تلكم هي بيت الحكمة التي كانت مركزاً للتأليف والتعريب والنسخ وضمت تراثاً علمياً شاملاً لأمم أخرى لغاتها غير العربية بالطبع[٣].

ومع الازدهار برزت المكتبات الضخمة.. ضخمة في حجمها قياساً بقدرات عصرها لم تكن هناك مطابع.. ولم تكن هناك دور نشر.. كان الإنسان ينسخ على ضوء خافت.. يجهد بصره.. ومع ذلك نقرأ عن مكتبات في القرن الرابع الهجري تصل مجموعاتها إلى ما يزيد على عشرة آلاف مجلد:

دار العلم في الموصل..
دار العلم في بغداد..
دار العلم في البصرة..
دار الحكمة في مصر.

الانتشار الكبير للمكتبة بلغ حداً قد نعجز أحياناً عن تصوره.

---

(٣) تتناثر المعلومات عن هذه المؤسسة ومكتبتها في مصادر كثيرة، وقد وضع كتاباً عنها سعيد الديوه جي عنوانه (بيت الحكمة. ــ ط ٢. ــ الموصل: المؤلف، ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م).

مرو، في القرن السابع الهجري على عهد تجوال ياقوت الحموي، كانت فيها عشر مكتبات عامة.. يمكن لأي إنسان أن يرتادها، بل ويستعير منها، قال هو نفسه في معجم البلدان إن بيته ما كان يخلو من مائتي عنوان مستعارة منها، وهي التي أعانته في وضع كتابيه الشهيرين: إرشاد الأريب، ومعجم البلدان(٤).

وكان التسابق في بناء المكتبات وتشييدها ملحوظاً بين أثرياء وعلماء ومسؤولي القرون الهجرية من الرابع حتى العاشر، ووصل حجم بعضها حداً نقف على حذر من تقبله، ولعل ذلك نابع من الاستكانة للواقع وعدم تصديق أن يكون الماضي فيه ثراء.

وإذا كان أمراً مقبولاً وجود دور كتب في مدن كبيرة مثل بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من العواصم المعروفة، فإن الرخاء الفكري والإيمان بأهمية المعرفة في بناء الإنسان أوصلا المكتبة إلى مدن لا نعرف إلا القليل عنها، فأن تكون في فجيج ــ وهي بليدة في المغرب الأقصى ــ مكتبة كبيرة عامرة مفتوحة لعامة الناس في القرن العاشر الهجري، فذلك ما يدفع إلى العجب(٥).

---

(٤) كتاب معجم البلدان تحقيق محمد أمين الخانجي. ــ القاهرة: محمد أمين الخانجي (مطبعة السعادة)، ١٣٢٤هـ ــ ١٩٠٦م، ٨/٣٦.

(٥) لمزيد من المعلومات انظر ابن زيان، ابن علي محمد «خزانة بني عبد الجبار بفجيج: دار العدة» دعوة الحق ع ٢٤٨ (شعبان ١٤٠٥هـ ــ مايو ١٩٨٥م).

ولم تكن المكتبة ترفاً.

ولم تكن مجرد أبنية.

ولكنها كانت مراكز فعالة في مجتمعها.

تقصـــد للأخـــذ.

ويرتادها العلماء من أبناء المدينة أو المنطقة، وقد تقـصـد من أماكن بعيدة.

ويوضح لنا أنها لم تكن ترفاً، الشعور بفقدها والتعجيل بتعويضها، فعندما أحرقت دار العلم التي أسسها سابور بن أردشير في أواخر القرن الخامس الهجري[6] قام غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء بتعويضها بمكتبة أخرى، وجعل فيها آلاف الكتب. وتنص كتب التراث على أن الأمر كان تعويضاً، إذ يقول ابن كثير: «عوضاً عن دار أردشير التي أحرقت في بغداد»[7].

---

(٦) أنشئت هذه المكتبة في عام ٣٨٢هـ، وضمت عشرة آلاف مجلد، وبقيت سبعين سنة، انظر (ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧) / المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ـ حيدرأباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ، ٢٢/٨).

(٧) البـداية والنهايـة. ـ ط ٢. ـ بيـروت: مكتبـة المعـارف، ١٩٧٧، ٨٥/١٢.

ولم تكن النكبات أو الكوارث تحد من تأسيس وتشييد المكتبات، فإن زالت مكتبة مستقلة، جاءت مكتبة ملحقة بجامع أو مدرسة، وإن أصابت نائبة من النوائب إحدى المكتبات، بادر أفراد أو جماعات إلى تزويدها بما يعوضها عما ذهب..

وبالتالي، فإن القضية تبدو في حركة عطاء دائم لا توقف له... والعجيب في الأمر أن تكون الكتب متوفرة لتغذية كل تلك المكتبات، والعجيب في الأمر أن تكون من الوفرة حتى أن مُوقِفاً مثل القاضي الفاضل يجعل في مكتبة المدرسة التي أوقفها في القرن السادس الهجري مائة ألف كتاب(٨).. أو أن ينقل الخليفة الناصر عند تجديد مكتبة المدرسة النظامية في بغداد في القرن السادس أيضاً عشرة آلاف كتاب دفعة واحدة(٩)..

ولم يستطع التدمير المغولي البربري للشرق الإسلامي، وتحطيم بغداد معقل الخلافة من إنهاء دور المكتبة وحب الكتب في أعماق الإنسان العربي المسلم، فقد كانت مكتبة مرصد

---

(٨) الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢هـ) / طبقات الشافعية تحقيق عبد الله الجبوري. ـ الرياض: دار العلوم، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ٢٨٤/٢.

(٩) سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت ٦٥٤هـ) / مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. ـ حيدرأباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م، ج ٨ ق ٤٢١/١ ـ ٤٢٢.

مراغة تضم في القرن السابع وبالتحديد في أواخره، ما يقارب أربعمائة ألف مجلد[١٠]. . وكانت مكتبة المدرسة المستنصرية في بغداد تضم ثمانين ألف مجلد في فترة إشراف العالم ابن الفوطي عليها وهو الذي توفي عام ٧٢٣[١١].

وفي مصر، رغم سيطرة المماليك الذين عادة ما يتبادر إلى الأذهان رزوحهم تحت ثقل الجهل نتيجة النشأة، إلا أن حركة المكتبات شهدت ازدهاراً غريب الصفة في عهدهم فلم تكن مدرسة تشيد إلا وتلحق بها مكتبة عامرة، وما من سلطان مملوكي جاء إلى السلطة إلا وعني بتأسيس مكتبة في مدرسة أو جامع.

والمؤكد أن المكتبة سبقت المدرسة. . وبالتالي مارس بعضها دور المدرسة وإن لم يكن على الصفة المعروفة فيما بعد. . ولكن كانت حلقات نقاش تجرى بين أروقتها، وكان هناك من يقرأ علماً على عالم بذاته. . وكان الأمر الغالب قيام حوارات علمية وفكرية وأدبية بين مرتادي تلك المكتبة، وهي ظاهرة استمرت حتى زمن متأخر تأصلت منذ فترة التأسيس، ولعل هذا

---

(١٠) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) / الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق. ــ القاهرة: دار الكتب الحديثة، د. ت، ٢/٤٧٤.

(١١) معروف، ناجي / تاريخ علماء المستنصرية. ــ بغداد: المؤلف (ساعدت جامعة بغداد على طبعه) ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٥م، ٥٩ ــ ٦٠.

هو ما دفع بابن كثير إلى أن يعتبر دار العلم في بغداد أول مدرسة وقفت على الفقهاء[١٢].

وانتشار المكتبة بالطريقة التي أشرنا إليها منذ فجر الإسلام يؤكد أن البيئة الثقافية العربية ركنت بشكل أساسي عليها منفذاً للوصول إلى المعرفة الإنسانية دون أن يكون هناك قيد أو إلزام بأخذ محدد.

والمقارنة لن تكون بحال من الأحوال في صالح الحاضر، فإذا كان العدد فإن التفوق للقديم، وإن كان حجم المجموعات فالمقياس الزمني لمكتبة من القرن الرابع تضم عشرة آلاف مجلد يعنى الكثير في مقابل مكتبة معاصرة في عاصمة تضم مائة ألف أو أكثر من ذلك.

وحتى التأهيل المهني... إن كان الحاضر يعرف مدارس أو أقساماً للمكتبات لتخريج مهنيين محترفين فإن تلك المكتبات القديمة ما كان يتاح الإشراف عليها والعمل فيها إلا لمتفوقين علمياً بارزين مشاهير أعلام في عصرهم.

فقد امتهن العمل المكتبي ابن الفوطي المؤرخ والعالم الكبير في القرن السابع، وامتهنها علي ابن أنجب (ت ٦٧٤هـ) الساعي المؤرخ المعروف.

---

(١٢) البداية والنهاية، ٣١٢/١١.

وعمل في مكتبة المستنصرية ياقوت المستعصمي الأديب والخطاط الذي حصل على شهرة كبيرة.

ومارس شعراء وأدباء ونبلاء العمل في المكتبة. . رغم قسوة العقوبات التي تنتظر المفرط، ويكفي أن نعرف أن أمين مكتبة المدرسة المحمودية السراج عمر، وهو من أهل القرن التاسع جلد عقاباً به على التفريط في مهنته التي كان يتولاها(١٣).

والتلازم بين المكتبة والمدرسة في تلك الأيام الغابرة قبل أن نرزح تحت سطوة الأمية المدمرة يظهر وعياً ومعرفة مسبقة وحسب الوسيلة التربوية الرائجة حالياً، والتي تؤكد على أهمية وجود مكتبة في كل مؤسسة تعليمية، حيث أنها ستكون الملاذ والملجأ للدارس كي ينهل من العلم في ميدان تخصصه وفي غير ذلك ليكوّن ركيزة ثقافية تساعد على تنمية قدراته وتعينه على مجابهته التوسع المعرفي الهائل الذي يشهده العصر، من هنا وجدنا الربط بين المكتبة والمدرسة منذ المرحلة الأولية في التعليم وحتى مراحل التعليم النهائية، لكل مقاييسه ومعاييره المحددة من حيث المجموعات ونمط الخدمة. . . وذلك ما هو عليه الوضع في

---

(١٣) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ) / الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ــ بيروت: دار مكتبة الحياة، د. ت، ١٤٣/٥ ــ ١٤٤.

الغرب، إذ حالما يُشرع في تأسيس مدرسة لأطفال ما دون المرحلة التعليمية النظامية يكون مقر المكتبة محدداً واضحاً، وعندما يشرع في بناء كلية أو جامعة... تكون المكتبة محورها، وأهم ما يبنى في حرمها.

وليس البناء هو التوجه الوحيد الممثل للاهتمام، بل تنمية المجموعات وتغذيتها والعمل على استمرار تطورها، يشكل مفهوماً ثابتاً راسخاً لا يمكن للأزمات الاقتصادية أن تؤثر عليه أو فيه، قد يقع نوع من التقليص لكن دون أن يكون هناك توقف عن الملاحقة، فالمكتبة تفقد قيمتها بمجرد حصرها في إطار مجموعتها الأصلية التي بدأت بها أو عند افتقارها إلى الجديد الذي يؤكد ويؤيد استمراريتها في تعضيد الأعلى والتشييد للبنية الفكرية.

ونحن اليوم نحتذي الأنموذج الغربي ونعجب به.

وذلك حق فالفرق بين واقعنا، وواقعه كبير يتطلب هذا الاحتذاء، كما أن انبهارنا بتجربته أمر طبيعي نظراً لتقدمها ورقيها.

فالدارس في جامعات غربية يشعر أن المكتبة هي كل شيء.

والدارس في جامعات العالم العربي أو العالم الثالث بصفة عامة، سيجد أنه مهما كان الاهتمام بأمر المكتبة فإنها تظل قضية

ثانوية لأن المنهج الدراسي، والنمط التعليمي القائم يحجمانها ويهشمانها ويجعلان منها مسألة ليست بذي بال . .

قد تكون مقراً للاستذكار في أيام الامتحانات والدليل أن ساعات عملها تزداد في مواسم الامتحانات أو قد تكون مقراً لقراءة المجلات والصحف أو قد تكون ملاذاً للراحة . .

وأخيراً قد يطرق بابها باحثون ودارسون من خارجها يستفيدون منها.

وتنازلياً نجد الوضع يصل إلى مستوى من السوء قد لا يحتمل.

فالمدرسة إن وجدت بها مكتبة فهي غرفة كتب غير منسقة . . لا تخدم ولا يستفاد منها . . . وأحدث ما تضمه قد يكون مما نشر منذ أعوام طوال . . . وطريقة الاقتناء وتنمية المجموعات ارتجالية ليس فيها تمايز أو تخصيص فكأنما الجميع سواسية كأسنان المشط في قبول ما يأتي حشراً.

هذا إن وجدت المكتبة.

ولكنها . . مغفلة، بل لعلها في دول كثيرة من العالم (النامي)، عبارة عن ترف لا داعي له إذ ما الذي يدعو إليها؟.

إذا كان الكتاب موجوداً.

والمدرس قادراً على التلقين.

والطالب مجبراً على حشو دماغه بما يدفع إليه منقولاً أو محفوظاً.

وإذا كان وضع المكتبة في قديمنا يناظر ما هي عليه في عالم الحضارة المعاصرة انتشاراً وتنظيماً وأهمية في بنية الثقافة والفكر، فإن اختفاء دورها ومفهومها الحضاري البناء فجأة منذ نهاية القرن العاشر رغم التراكم الموروث يدفع إلى الدهشة المبكية.. فما هي عوامل الانهيار الفجائي بعد ترسيخ تقاليدها، واندماج مفاهيمها بشريان الفكر والثقافة العربية الإسلامية؟، قبل أن نجيب ونبحث في الأسباب والعوامل قد نحتاج إلى ما ندفع به الاتهام بالمبالغة والتحنط في كفن الماضي وتصويره بما ليس فيه رغبة في رفع قيمته مقارنة بالحاضر بالشواهد التراثية التالية منقولة بنصها فهي تعبر عن زمنها، وما حمله من ازدهار حضاري، كانت المكتبة عماده.

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان وهو يتحدث عن مدينة مرو الشاهجان:

> فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع، إحداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر، وكان فقاعياً للسلطان سنجر، وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرابياً له،

وكان ذا مكانة منه، وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها الكمالية لا أدري إلى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبي سعد بن منصور في مدرسته، ومات المستوفى هذا في سنة ٤٩٤، وكان حنفي المذهب، وخزانة نظام الملك بن إسحاق في مدرسته، وخزانتان للسمعانين، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها، والخزائن الخاتونية في مدرستها الضميرية في خنكاه هناك، وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد، وأكثرها بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن[١٤].

ويذكر ابن حجر العسقلاني وهو يترجم لسليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الصيفي المعروف بابن أبي عباس الحنبلي المتوفى سنة ٧١٦ نقلاً عن الكحال جعفر: «كان كثير المطالعة، أظنه طالع أكثر كتب خزائن قوص»، وفي مكان آخر يقول: «ويقال كانت بقوص خزانة كتب من تصانيفه»[١٥]، وقوص مدينة من مدن مصر لم تكن لها شهرة مثل عواصم العالم الإسلامي المعروفة في ذلك الحين ومع ذلك فقد كانت بها خزائن كتب وليس خزانة واحدة.

(١٤) ٨/٣٦.

(١٥) ابن حجر العسقلاني، ٢/٢٥٠ ــ ٢٥١.

كذلك كان وضع المكتبة في مدينتين إسلاميتين الأولى تعددت مكتباتها رغم صغر حجمهما قياساً بالعواصم الكبيرة المعروفة في ذلك الحين. وكما يحتفل بالإنشاءات المعاصرة ويحتفى بها كان ضمن برنامج الاحتفال بالفراغ من إنشاء المدرسة المستنصرية التجوال في أرجائها وزيارة مكتبتها، وقد وصف أحد المؤرخين جانباً من الاحتفال فقال:

> وفي شهر جمادى الآخرة تكامل بناء المدرسة المستنصرية التي أمر الخليفة بإنشائها وجعلها على المذاهب الأربعة وأنفق عليها من المال ما يعجز عنه الحصر. ووقف عليها وقفاً جليلاً.
>
> وفي يوم الخامس والعشرين من الشهر ركب الوزير أبو الأزهر أحمد بن الناقد إليها فقبل عتبتها وطاف في أرجائها فراعه ما شاهده من وصفها الغريب وترتيبها وحملت إليها الكتب النفيسة ذوات الخطوط النفيسة والأصول المضبوطة المحتوية على سائر العلوم الدينية على مائة وستين جملاً سوى ما نقل إليها بعد ذلك. وجعلها وقفاً بدار الكتب التي أنشأها بالمدرسة المذكورة(١٦).

ولم يقتصر انتشار المكتبة على المكتبات العامة والمكتبات

---

(١٦) الأشرف الغساني، عماد الدين أبو العباس إسماعيل (ت ٨٠٣هـ) / العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك تحقيق شاكر محمد عبد المنعم. ــ بيروت: دار التراث العربي، ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م، ص ٤٥٨.

المدرسية، بل قفز حائط التوقع حتى أصبح المرء يتخيل أن على كل شبر من الأرض كانت مكتبة في المساجد والجوامع، وفي الربط والخانقاهات، وفي الزوايا والترب.

أضف إلى كل ذلك ما كان لدى الوجهاء والأعيان والخلفاء والعلماء من مكتبات خاصة تشير المصادر إلى ما كان في بعضها فتعطينا أرقاماً تتعدى خانة الآلاف في بعض الأحيان.

وتقفز صورة المكتبة شاهداً على تأصيل روح المعرفة في ذات الإنسان العربي عندما نجد أن فكرة مكتبة الدولة قد تبلورت في أذهان السلف فقد أورد ابن كثير ضمن حوادث سنة ٦٤٤هـ، وما نصه:

> وفيها فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي بدار الوزارة، وكانت في نهاية الحسن، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيء كثير وامتدحها الشعراء بأبيات وقصائد حسان[١٧].

والمتأمل لجملة «دار الكتب.. بدار الوزارة» سوف يدرك أنها تعني بمفهومنا المعاصر مكتبة رسمية للدولة، فإذا كانت مكتبة الكونجرس مكتبة رسمية جاء الهدف من إنشائها في القرن التاسع عشر لتوفير المعلومات للأعضاء الرسميين في الكونجرس، فقد كانت المكتبة التي أنشأها ابن العلقمي تهدف إلى توفير معلومات

---

(١٧) البداية والنهاية، ١٣/١٧٢.

للعاملين بدار الوزارة في القرن السابع الهجري، ولا نرمي من المقارنة إلى تغليب السبق العربي، ولكن توضيح مكانة الكتاب والمكتبة في مجتمع ما كانت الأمية تلقى جحراً فيه فتندس لتخرج بعد حين وتنتشر.

وإذا كانت تلك نماذج مكتبات مشرعة الأبواب لجمهور القراء يأتون إليها ويقصدونها متى رغبوا فإن دلالة انتشارها في المدن والقرى وتعددها في المدينة الواحدة تؤكد تراجع الأمية في ذلك الزمن أمام انتشار المعرفة بالقراءة انتشاراً واسعاً تخطى مسألة (فك الحروف) إلى الثقافة التي يحتاج الفرد معها إلى قراءة معمقة لا توفر له إلا من خلال دور الكتب التي تملك الإمكانات حجماً، ومكاناً.

ومع توفر دور الكتب.
وتعـددهـــا.
وانتشـارهـــا.

كانت هناك مكتبات خاصة بالأفراد توجد في منازلهم وكانوا من الحكام والوزراء والأثرياء والعلماء، وطلاب العلم، يتفاوت حجمها تبعاً للمسألة الاجتماعية والقدرة المالية.

وهذه النوعية من المكتبات تلازمت مع ظهور الكتاب، وبالتالي نجدها عند أغلب علماء القرون الأولى، وفي قصور خلفاء بني أمية، وبني العباس، وحاشيتهم وخواصهم وظلت دون

شك ماثلة حتى اليوم ولكن قوتها في فترات تضاؤل الأمية والجهالة تمثلت في ضخامة أعدادها وكبر مجموعاتها.

وليس من الضروري أن تكون المكتبة لعلم مشهور، بل تكون لطالب علم مجهول إلا أنها تتميز بالوفرة العديدية والنماذج كثيرة.

ونسوق فيما يأتي بعضاً مما حملته مصادر التراث من أخبار عن المكتبات الخاصة لنقف على البعد الحضاري للكتاب ركيزة في بنية الثقافة العربية، بل ظاهرة فريدة ظلت متوارثة حتى يومنا، حيث بقيت المكتبة الخاصة مسألة ذات انتشار واسع بين الأفراد وإن وجدت مكتبات عامة يمكن أن تقصد للقراءة والاستعارة.

ولن تكون الأخبار التي نحاول أن نثبتها إلا شتات مجمع من مصادر قليلة لأن التقصي ليس هذا موقعه..

فمما يذكر مسكويه في حوادث سنة ٣٥٧ هجرية، أي أواسط القرن الهجري الرابع، أنه عند مصادرة أملاك الحبشي بن معز الدولة البويهي في البصرة أخذت خزانة كتبه التي كانت تضم خمسة عشر ألف مجلد إضافة إلى مجموعة أخرى من الكتب غير المجلدة[١٨].

---

(١٨) تجارب الأمم. ــ القاهرة: شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ ــ ١٩١٥م، ٢/٢٤٦. ونص الخبر: «فكان في جملتها خزانة كتبه وفيها خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء والمشرس غير المجلد».

والعدد هنا ضخم وكبير خاصة وأن الزمن موغل في القدم، وهو ما يجعلنا نعتقد أن انتشار التصنيف والتأليف كان في أول الطريق في حينه، فكيف يكون الأمر كذلك وفرد واحد يملك أكثر من خمسة عشر ألف مجلد.

وقبله كانت كتب النحوي ابن عقدة، المتوفى سنة ٣٣٢، «ستمائة حمل جمل» كما يذكر ابن كثير[١٩]، وللتوصل إلى عدد ما تحتوي عليه نحتاج إلى معادلة رياضية حتى نتوثق من الرقم الذي يمكن أن نعتقده بالنسبة لما كانت تضمه مكتبة ابن عقدة.

وكونت أديبة وعالمة أندلسية من القرن الرابع الهجري هي عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم، المتوفاة عام ٤٠٠هـ، مكتبة كبيرة، شملت معارف وفنوناً متنوعة وصفها ابن بشكوال بقوله: «ولها خزانة علم كبيرة»[٢٠].

كما خلف الأفضل شاهنشاه بن بدر أمير الجيوش الجمالي، المتوفى سنة ٥١٥هـ، خمسمائة ألف مجلد[٢٠]، وهو عدد كبير لعلنا نحتاط في قبوله.

وكان من بين ما تم مصادرته من أملاك أبي الحسن أمين

(١٩) ابن كثير، ١٩/١١.

(٢٠) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ) / كتاب الصلة. ــ القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م (تراثنا ــ المكتبة الأندلسية ــ ٤) ٦٩٢/٢.

الدولة غزال المتطبب في سنة ٦٤٨هـ، عشرة آلاف مجلد من الكتب المنسوخة بخطوط نفيسة(٢١).

وملك عالم متواضع الشهرة هو أبو العباس أحمد بن محيي الدين الفاروثي الواسطي، المتوفى سنة ٦٩٤هـ، مكتبة ضمت «ألفي مجلد ومائتي مجلد»(٢٣).

أما المؤلف والوزير علي بن يوسف القفطي، المتوفى سنة ٦٩٦هـ، فكان غرامه الكتاب يبحث عنه ويسعى إليه حتى جمع ما لا يوصف(٢٤).

وفي مدينة تعز باليمن كون أحد ملوك بني رسول وهو داود بن يوسف بن عمر، المتوفى سنة ٧٢١هـ، مكتبة خاصة اشتملت على مائتي ألف مجلد(٢٥).

---

(٢١) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ) / الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبيح. ــ القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت، ص ١٥٥.

(٢٢) ابن كثير، ١٣/١٨١.

(٢٣) ابن كثير، ١٣/٣٤٢.

(٢٤) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨هـ) / سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. ــ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م، ٢٣/٢٢٧.

(٢٥) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) / البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. ــ بيروت: دار المعرفة، د. ت، ١/٢٤٨.

واستطاع أحد فقهاء اليمن في عهد بني رسول وهو عمر بن علي العلوي الحنفي أن يجمع مكتبة حافلة قال عنها الخزرجي «ليس لأحد مثلها»، وكان من جملة محتوياتها خمسمائة ديوان من الشعر(٢٦).

ومن بين الأشياء التي خلفها السلطان إسماعيل بن محمد بن أيوب صاحب دمشق، المتوفى سنة ٦٠٨هـ، عشرة آلاف مجلد(٢٧).

وقد نرتاب في بعض الإشارات ولكن تواترها في أكثر من مصدر يدفع إلى قبولها من مثل ما ذكر أن القاضي عبد الكريم بن علي البيساني، المتوفى سنة ٦٢١هـ، كانت لديه مكتبة بها مائتا ألف كتاب(٢٨). والرقم هنا كبير جداً ولكن إذا قبلنا أن الحبشي بن معز الدولة ملك في أواسط القرن الرابع الهجري خمسة عشرة ألف مجلد، فلم لا نقبل أن يكون البيساني قد جمع في القرن السابع مائتي ألف مجلد.

وننحدر إلى القرن الثامن فنجد أعلاماً ملكوا مكتبات كبيرة

---

(٢٦) الخزرجي، علي بن حسن (٨١٣هـ) / العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية تحقيق محمد بسيوني عسل. ـ لندن: أوقاف ذكرى مستر جب (القاهرة: مطبعة الهلال) ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م، ١/ ٣٥٧.

(٢٧) الذهبي، ٢٢/ ١٣٧.

(٢٨) الذهبي، ٢٢/ ٢٤٧.

كان بينهم شافع بن علي العسقلاني، المتوفى سنة ٧٣٠هـ، فقد اشتهر بحبه لجمع الكتب حتى أنه لما مات ترك نحو عشرين خزانة ملأى من الكتب النفيسة، ولما كف بصره كان يعرف عناوين الكتب ويذكر الوقت الذي اشترى فيه الكتاب الذي يلمسه(٢٩).

وكان مجد الدين الفيروز أبادي صاحب القاموس مغرماً بالكتب، فكان لا يسافر إلا وبصحبته عدة أحمال من الكتب ويخرج أكثرها في كل منزلة ينظر فيها ويعيدها إذا رحل، وكان إذا أملق باعها(٣٠).

واشتهر عبيد الله يعقوب سبط الوزير أحمد باشا ابن الفناري بحب الكتب حتى وصل ما جمعه إلى عشرة آلاف كتاب، ويذكر أحد معاصريه أنه استطاع خلال فترة إقامته بحلب جمع ما يناهز تسعة آلاف مجلد جعل لها فهرساً مجلداً مستقلاً يذكر فيه الكتاب ومؤلفه(٣١)...

---

(٢٩) ابن حجر العسقلاني، ٢/٢٨١.

(٣٠) طاشكبري زاده، مصطفى بن خليل (ت ٩٦٨هـ) / مفتاح السعادة ومصباح السعادة تحقيق عبد الوهاب أبو النور وكامل كامل البكري. ــ القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨م، ١/١٢١.

(٣١) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ) / الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة تحقيق جبرائيل سليمان جبور. ــ بيروت: محمد أمين دمج وشركاه، ١٩٤٥م، ٢/١٨٩.

أما في القرن الحادي عشر الهجري فكانت لدى العالم الشهير عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب مكتبة كبيرة كانت متخصصة في الأدب قيل إنها كانت تضم «ألف ديوان من دواوين العرب»(٣٢).

هذا الثراء في ميدان الكتب في عصر لم تصله الآلة التي تعين على تعدد النسخ وانتشار العنوان الواحد ينبىء أن المستوى الثقافي والعلمي للأفراد كان رفيعاً جداً على مدى قرون طوال.

والأمر يتراوح هنا.

الفقير.. يذهب إلى المكتبات العامة وهي وفيرة ومتناثرة يجدها أينما ذهب، والقادر يُكوّن لنفسه مكتبته الخاصة وكل على قدر ما يملك من مال يساعد على التغالي في ضخامة العدد.

والتخصص في التجميع قضية مألوفة كما رأينا في مكتبة عبد القادر البغدادي.

ونظرة في كتب التراجم تعفي من الإطالة فما من عالم أو علم شهير إلا وجاءت في ثنايا ترجمته إشارة تحدد عدد ما كان يملكه من الكتب أو تؤكد أنه «جمع كتباً نفيسة».

---

(٣٢) المحبي، محمد أمين (ت ١١١١هـ) / خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ــ بيروت: دار صادر، د. ت (مصورة عن نسخة المطبعة الوهبية في مصر عام ١٢٨٤هـ).

أو تأتي إشارة في شكل مختلف يعطي دلالة على امتلاك الفرد المترجم له لمكتبة خاصة به كما ذكر في ترجمة الحافظ تقي الدين محمد بن أبي الحسن اليونيني من أنه توفي في عام ٧٠١هـ متأثراً بإصابة لحقت به من جراء اعتداء لص انهال عليه ضرباً وهو بخزانة الكتب «فمات بعد أيام»[٣٣]، وقول المحبي بأن درويش بن أحمد الطالوي الدمشقي كانت له خزانة كتب يقضي وقته فيها يصفها ويرتبها ويقلبها، وهو ينشد:

أقلبها حفظاً لها وصيانة

فيا ليت شعري من يقلبها بعدي[٣٤]

* * *

المدرسة:

والمغالاة في حب الكتاب وجمعه وتشييد المكتبات حتى أصبح الأمر كما قلنا يشكل ظاهرة فريدة على الأرض العربية أتاحت ثقافة وعلماً وحجمت الأمية ولم نقل قضت عليها لأن العنصر القادم سوف يجعلنا نقيس مقدار ما كان منها إن كان هناك أي شيء.

والعنصر الذي سوف نعرضه، له محاور تأخذ أبعاداً وأشكالاً حسب طبيعة المخدومين، وقد كان من المفروض أو لنقل

---

(٣٣) ابن كثير، ١٤/٢٠.

(٣٤) المحبي، ٢/١٥٥.

من الطبيعي أن يأتي قبل الحديث عن المكتبة غير أن ظهور المكتبة سابقة جعلنا نؤخره ليأتي تالياً لها. تلكم هي المدرسة. .

والحديث عن المدرسة ذو شجون.

ولعلنا نعجب أن يكون لها دور واسع. . يصل درجة تفوق دورها في هذا العصر الذي نعيشه. .

وإنها لكذلك. .

كثـــرة. .

وأهـدافـــاً. .

وقدرة على التغلغل في روح الدارس. .

وانـطلاقاً وتقـدماً في إيصـال المعلومة من الملقي إلى المتلقي.

وقد كانت بداياتها متقدمة شكلاً وأداء، وهو تقدم مدهش لم يشتق عن أنموذج سابق فهي لم تكن، فارسية، أو روميـة، أو صينية. .

بل ظهرت مؤصلة الجذر ظاهراً وباطناً.

ولعل تطورها مر عبر سلسلة من الرؤى والتجارب من خلال استخدام المساجد والجوامع أماكن للتعليم وظهور المكتبة لتشكل وحدة مساندة. . معينة على الانتشار التعليمي والثقافي.

ومن القديم رفض المؤرخون العرب فكرة أن تكون المدارس النظامية التي تأسست في القرن الخامس الهجري أول ما عرف من المدارس في تاريخ الإسلام.

والمؤرخ المقريزي صاحب المواعظ والاعتبار من أبرز من دفعها ورفض قبولها فكان أن أشار إلى أنها لم تكن معروفة في عصور الإسلام الأولى، ولكن قيامها يمكن أن يعود إلى ما بعد الأربعمائة الهجرية وكان من أقدمها المدرسة البيهقية في نيسابور وكانت خاصة بالحديث، وبنى السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة عرفت بالسعيدية ثم جاءت النظامية[٣٥].

ومجيء النظامية يشكل تطوراً في تاريخ التعليم عند العرب والمسلمين، فهي دون شك لم تكن مجرد مدرسة عادية، بل لعلها جاءت لتكون أول كلية مخصصة للدراسات العليا.. فنمطها وتوجهها والاهتمام الذي أولي بها ما كان اهتماماً عادياً، وهيئة التدريس التي عملت بها كانت نخبة علماء ذلك العصر رأسهم عالم من أبرز وأشهر علماء الإسلام هو أبو إسحاق الشيرازي.

وقد بدأ بها عام ٤٥٧هـ، وجرى افتتاحها رسمياً عام ٤٥٩هـ ولعل ما يؤكد علو شأن النظامية ما ذكر من امتناع أبي إسحاق

(٣٥) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) / كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ــ طبعة جديدة بالأوفست. ــ بيروت: دار صادر، د. ت، /٣٦٣.

الشيرازي عن التدريس فيها وإصرار نظام الملك عليه ومن ثم تدخل الخليفة لإقناعه[٣٦].

وجاءت بعدها بزمن المستنصرية في بغداد التي أفضل بها الخليفة العباسي المستنصر بالله[٣٧] ولا زال بنيانها العتيق الرائع قائماً حتى اليوم في بغداد يشهد بعظمة ماضيها، وشهدت كل من النظامية والمستنصرية حركة علم دؤوبًا متوالية لا انقطاع فيها، وتركز فيها علماء المشرق وأصبح الانتماء إليهما شرفاً وفخراً حتى كان يقال في صفة المرء عندما يترجم له فلان مدرس النظامية أو فلان مدرس المستنصرية. وكما أن النظامية كانت كلية للدراسات العليا فإن أمر المستنصرية لا يختلف عن ذلك فهي بوضعها وبالأوصاف التي ذكرت حولها لا يمكن إلا أن تكون موئل العلم الرفيع لا يصل إليها ولا يدخل جنباتها إلا ناضج قادر على اللحاق بركاب سادة العلم والفكر في ذلك الزمن.

---

(٣٦) السنيدي، عبد الرحمن علي / نظام الملك ودوره في الازدهار الحضاري للدولة السلجوقية ٤٥٦ ــ ٤٨٥هـ = ١٠٦٣ ــ ١٠٩٢م. ــ رسالة ماجستير بإشراف محمد مسفر الزهراني ومحمد فتحي الريس. ــ الرياض: قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م، ص ص ١٤٨ ــ ١٤٩.

(٣٧) لمزيد من المعلومات عن هذه المدرسة، انظر: تاريخ علماء المستنصرية لناجي معروف.

وتناثرت المدارس في كل رقعة كما تناثرت المكتبات. . . ففي دمشق وحدها توالت عشرات المدارس أشار إليها النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس ويعدد المقريزي في المواعظ والاعتبار مدارس القاهرة ويقدم تاريخاً لكل منها كيف نشأت وتكونت ومن صاحبها وما هي مواردها المالية ومن درس فيها إن عرف ذلك.

ولم تكن المدارس مجرد أبنية تقام أو مجموعة من الطلاب يتلقون العلوم فيها على مدرسين في زمان ومكان محدودين، بل كان أكثرها في شكل مؤسسات علمية راقية لها نظمها الخاصة التي تسير عليها، وتقاليدها التي ترعاها، ومواردها المالية التي تعتمد عليها في أداء رسالتها.

فالمدرسة المستنصرية في بغداد التي فرغ من بنائها في عام ٦٣١ هجرية بدأ التعليم فيها وفق نظام دقيق إذ أنها:

> وقفت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد[٣٨].

---

(٣٨) ابن كثير، ١٣/١٣٩.

وكانت عمارة غالبية المدارس على درجة كبيرة من الإتقان والسعة والجمال ينفق عليها مال طائل بحساب الزمن الذي أنشئت فيه.

والمؤكد أن جميع المدارس التي أنشئت في التاريخ الإسلامي كانت تعتمد على الوقف رغم تنوعها من حيث الحجم والإمكانات، وقد كان التعليم فيها كما يذكر المرحوم مصطفى السباعي في كتابه «من روائع حضارتنا»:

> مجانياً ولمختلف الطبقات، فلم يكن يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسماً من رسوم الدراسة... ولم يكن التعليم فيها محصوراً بفئة من أبناء الشعب دون فئة، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب، كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني، وابن التاجر بجانب ابن الصائغ والمزارع، وكانت الدراسة فيها قسمين، قسماً داخلياً للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسماً خارجياً لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه[٣٩].

وإذا كان من الصعب حصر كافة المدارس التي عرفت في التاريخ الإسلامي فلا بأس من إيراد معلومات عن بعضها مستقاة من مصادر تراثية مختلفة.

---

(٣٩) السباعي، مصطفى / من روائع حضارتنا. ـ ط ٢. ـ بيروت: دار الإرشاد، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، ص ١٣٢.

فالأمير سيف الدين علي بن الأمير علم الدين بن سليمان بن بندار وكان من أكابر الأمراء بحلب، وعرف بحبه للخير أوقف مدرستين بها، إحداهما على الشافعية والأخرى على الحنفية[٤٠].

وأوقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية على الحنفية[٤١].

وشيد القاضي الفاضل في سنة ثمانين وخمسمائة المدرسة الفاضلية في القاهرة ووقفها على فقهاء الشافعية والمالكية[٤٢].

وأسس الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي المدرسة الأزكشية وجعلها وقفاً على الفقهاء الحنفية فقط في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة[٤٣].

وفي سنة ٦٤١هـ «عمر الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام وأوقفها على الفقهاء الشافعية، وغبطه ملوك الأرض على هذه

---

(٤٠) ابن كثير، ١٣/١٠٨.
(٤١) المقريزي، ٢/٣٦٥.
(٤٢) المقريزي، ٢/٣٦٦.
(٤٣) المقريزي، ٢/٣٦٧.

المدرسة وكانت هذه العمارة على يد الأمير فخر الدين الشلاح»[٤٤].

وأنشأ محيي الدين بن عبد الرحيم بن زكير القرشي، المتوفى سنة ٧١٨هـ مدرسة في قوص ووقف عليها أوقافاً[٤٥].

وعمر الملك علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مدرسة في عام ٧٣٩هـ «بالجانب اليماني من الحرم وأوقفها في ذي القعدة على الشافعية وأرباب وظائفها»[٤٦].

كما أوقف الأفضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن في سنة ٧٦٨هـ مدرسة بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على فقهاء الشافعية[٤٧].

وشارك عبد الوهاب بن عبد الله المعروف بابن أبي شاكر،

---

(٤٤) ابن فهد، النجم عمر بن محمد بن محمد (ت ٨٨٥هـ) / إتحاف الورى بأخبار أم القرى تحقيق فهيم شلتوت. ـ مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (١٩٨٤م) ٣/ ٦٠.

(٤٥) الأسنوي، ٢/ ٢٦.

(٤٦) السخاوي... الضوء، ٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤٧) ابن فهد، ٣/ ٣٠٦.

المتوفى سنة ٨١٩هـ فأنشأ مدرسة في منطقة بين السورين بالقاهرة ووقف عليها عدة أوقاف[٤٨].

وأقام جمال الدين محمد بن محمد النظاري، المتوفى في عام ٩٢١هـ مدرسة في مدينة إب باليمن ووقف عليها وقفاً جليلاً[٤٩].

وشاركت بعض أميرات الدولة الرسولية في اليمن في تشييد المدارس في مناطق مختلفة.

من بينهم: ماء السماء ابنة السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول، المتوفى في عام ٧٢٤هـ «وكانت من أخير الخواتن.. وكان لها من الآثار المثبتة الذكر المدرسة التي في مدينة زبيد المعروفة بالواثقية ملاصقة لبيت أخيها الملك الواثق، جعلت فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن ومدرساً وطلبة يقرؤون العلم ووقفت عليهم من أملاكها»[٥٠].

---

(٤٨) ابن شاكر الكتبي، محمد (ت ٧٦٤هـ) / عيون التواريخ تحقيق نبيلة عبد المنعم داود وفيصل السامر. ــ بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٤م، ١٨٣/١١.

(٤٩) ابن الديبع الشيباني، عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ) / الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد تحقيق محمد عيسى صالحية. ــ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م، ص ٢٧٤.

(٥٠) الخزرجي، ٢٣/٢.

وأسهمت الدملؤة ابنة السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن رسول في تشييد مجموعة كبيرة من المدارس منها:

مدرسة في مدينة تعز وأخرى «في مدينة زبيد وهي التي تسمى الأشرفية»[٥١].

وكانت والدة السلطان الملك المجاهد الرسولي من أعظم الذين تركوا مآثر جليلة في ميدان التعليم باليمن وقد وصفها الخزرجي بقوله: «وكانت امرأة سعيدة عاقلة رشيدة حازمة سخية كريمة ذات سياسة ورياسة وكرم نفس وعلو همة...»[٥٢].

أما مآثرها فقد ذكر أن من بينها:

المدرسة المعروفة الكبيرة المشهورة بالصلاحية في مدينة زبيد ورتبت فيها إماماً ومؤذناً وقيماً.. ومدرساً للشرع ومدرساً في الحديث النبوي ومدرساً في النحو وطلبة في كل فن من الفنون المذكورة، وابتنت مدرسة في قرية المسلب من وادي زبيد.. وابتنت في قرية السلامة مدرسة وهي التي على يمين السالك إلى تعز...»[٥٣].

وكانت مدارس اليمن في ذلك الوقت مسرحاً لحركة تعليمية

---

(٥١) الخزرجي، ٤٣٠/١.

(٥٢) العقود اللؤلؤية، ١١٨/٢.

(٥٣) العقود اللؤلؤية، ١١٨/٢ ـ ١١٩.

نشطة يدرس فيها أقطاب العلماء من أمثال جمال الدين محمد بن يوسف الصبري قاضي تعز، المتوفى سنة ٧٤٢هـ الذي وصفه بأنه: «كان نحوياً لغوياً عارفاً بالقراءات السبع والفرائض والجبر والمقابلة، درس في المدرسة المعروفة بالغزالية في مدينة تعز ثم انتقل إلى المظفرية»(٥٤).

وتكاد جل المساجد التي بنيت في اليمن خلال القرون الثلاثة المشار إليها في عهد الدولة الرسولية أن تكون مدارس للعلم إلى جانب هدفها الأصلي وهي أن تكون بيوتاً للعبادة، فالملك المجاهد الرسولي كان مما عمله أن ابتنى جامعاً في ثعبات وجعل فيه إماماً ومؤذناً وخطيباً وشيخاً للحديث ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن، كما ابتنى جامعاً في الثويدرة على باب زبيد ورتب فيه إماماً وخطيباً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن. . ومدرساً للفقه وطلبة. . وابتنى مدرسة في دار العدل بتعز(٥٥). . .

* * *

ومُلِئَتْ بلاد الشام، خاصة دمشق وحلب، بمدارس أشار إليها ابن شداد في الأعلاق الخطيرة، وابن الشحنة في الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب والنعيمي في الدارس وابن طولون الصالحي. كان من بينها:

---

(٥٤) العقود اللؤلؤية، ٢/٧٥.

(٥٥) الخزرجي، ٢/٦١ ــ ٦٢.

المدرسة الزجاجية التي تأسست في عام ٥١٠ هجرية..

والمدرسة العصرونية..

والمدرسة النورية..

والمدرسة الصاحبية..

والمدرسة الشرطية..

والمدرسة الهروية..

والمدرسة الأتابكية.

وكانت المدارس موزعة حسب المذاهب السنية المعروفة، فمنها ما كان للحنفية ومنها ما كان للحنفية ومنها ما كان للشافعية أو المالكية، أو الحنابلة.

وما بين ابن شداد وابن الشحنة، تناقص عدد المدارس فكان الثاني وهو متأخر عن الأول يشير إلى انقراض بعضها أو زواله.

ويورد ابن شداد، المتوفى سنة ٦٨٤هـ في كتابه الأعلاق الخطيرة وهو يتحدث عن مدينة دمشق معلومات عن مدارسها التي وصل عددها إلى اثنتين وتسعين مدرسة، فيذكر اسم المدرسة واسم الذي أسسها أو أوقفها ثم يذكر بعض أساتذتها المشاهير.

وهذا الكتاب وغيره من الكتب التي اهتمت بإبراز التاريخ التعليمي عند العرب والمسلمين تضم صوراً واضحة عن اتساع

قاعدة التعليم النظامي في أرجاء المنطقة العربية والإسلامية في العصور الماضية.

ومن الطبيعي القول إن الإشارات السابقة مقتضبة وموجزة إيجازاً مجحفاً في حق التمدد غير المتناهي للمدارس في التاريخ العربي الإسلامي، لأن الإلمام بكل الجوانب والحديث تفصيلاً عن كافة مواقعها هو ضرب من المستحيل في حيز كهذا.

وإن كان ما ذكرنا يقدم لقطات سريعة تعطي الكثير للإنسان المعاصر فهي تصور واقع التعليم في جزء بسيط من أجزاء العالم العربي الإسلامي المترامي الأطراف في الماضي ولا يقف الحديث عن التعليم عند هذا الحد.

بل هناك ما يحتاج إلى توضيح لنرى صورة لتعددية الأنماط.. وتشابهها مع ما هو قائم في عصرنا مما كنا نظنه غربيًّا أجنبياً.

فتخصصية التعليم سمة.. كانت من الوضوح على درجة لا يمكن معها أن تتوارى مهما حل عليها النسيان أو التناسي.

فقد كانت هناك مدارس متخصصة للحديث عرفت بدور الحديث مثل دار الحديث الأشرفية بدمشق والتي كانت في القرن السادس الهجري، ومدارس متخصصة للدراسات القرآنية، ومدارس خاصة بدراسات الطب والعلوم الطبية، وقد أشار

ابن شداد إلى واحدة منها، حيث ذكر ضمن مدارس دمشق المدرسة الدخوارية التي أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدُّخْوار في سنة إحدى وعشرين وستمائة، وأول من درس بها واقفها ثم من بعده شرف الدين محمد بن الرحبي ثم أخوه محيي الدين.

كما يشير إلى مدرسة أخرى خارج البلد «ملاصق بستان الفلك الشيري أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي في سنة أربع وستين وستمائة، أول من درس بها جمال الدين الزواوي.. ثم تولى بعده المغربي وهو مستمر بها إلى الآن»(٥٦).

ويذكر أحد الباحثين أن البيمارستانات وهي اللفظ البديل لكلمة المستشفيات حالياً كانت تعتبر كليات طب إلى جانب قيامها بالدور العلاجي لعامة الناس(٥٧).

---

(٥٦) ابن شداد، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ) / الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق) تحقيق سامي الدهان. ـ دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٥٧) غنيمة، محمد عبد الرحيم / تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى. ـ تطوان: معهد مولاي الحسن، ١٩٥٣م، ص ١١٨.

وقد أوضح هذه المسألة الدكتور أحمد عيسى عندما أشار إلى أن طلبة الطب كانوا يتلقون علومهم على أساتـذتهم في البيمارستانات، إذ كانت تهيأ لهم الإيوانـات الخاصـة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيقعدون بين يـدي معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، كما كان يفعل أبو المجد ابن أبـي الحكم في البيمارستان النوري الكبير. . وذكـر ابن أبـي أصيبعة أن الفيلسـوف الإمام العـالم أبا الفـرج ابن الطبيب كان يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه، وأن إبراهيم بن بكس كان يدرس صناعة الطلب في البيمارستان العضدي لما بناه عضد الدولة وكان له منه ما يقوم بكفايته، وأن زاهـد العلماء ألف كتـابه في الفصـول والمسائل والجوابات التي أجاب عنها في مجلس العلم المقرر في البيمارستان الفارقي[٥٨].

أما نظم التعليم فإن الحديث عنها هنا أمر صعب، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أن العلاقة بين الأستاذ وطلابه في عصور الازدهار التعليمي والثقافي كانت علاقة تقوم على الود والاحترام على عكس ما قد نلمسه في عصور الأمية الدخيلة حيث التسلط والجفاء.

---

(٥٨) تاريخ البيمارستانات في الإسلام. ـ ط ٢. ـ بيروت: دار الرائـد العربـي ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص ص ٣٨ ـ ٣٩.

فالمناقشة كانت حواراً إنسانياً لها آدابها ولكل طرف مشارك فيها حقوقه المرعية، وإلى ذلك يشير محمد عبد الرحيم غنيمة عندما يورد حول هذه القضية نصوصاً تراثية توضحها فيقول:

وكان للمناقشة بين الأستاذ وطلابه آداب خاصة تكفل للأستاذ هيبته ومكانته وتحقق للطالب حرية الرأي وتهيىء له سبيل الاستفادة. روى ابن عبد البر القرطبي بسنده عن علي بن أبي طالب أنه قال:

«إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب وألا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض».

كما يجب على الأستاذ أن يحترم تلميذه ولا يهزأ برأيه ولا يزدري المساكين من طلابه ولا يختزن علمه ويرى في تعليمه ضعة ولا يأخذ مأخذ السلطان فيغضب أن يرد عليه شيء من علمه، وقال ابن عبدوس: كلما توقر العالم وارتفع كان العجب إليه أسرع إلا من عصمه الله بتوفيقه وطرح حب الرياسة عن نفسه.

وينصح الخليل بن أحمد العالم بأن يستفيد من مناقشته لطلابه فيقول: «اجعل تعليمك دراسة لك واجعل مناظرة العلم تنبيهاً بما ليس عندك»[٥٩].

---

(٥٩) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، ص ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

والحديث عن المدارس في التاريخ العربي الإسلامي أخذ نصيباً جيداً من الاهتمام في القديم، فما من كتاب في التاريخ إلا وهو يسجل معلومات عن بناء المدارس ضمن الحوادث التاريخية أو عند الترجمة للأشخاص من ذوي الجاه والسلطان أو العلماء والمفكرين، والأعلاق الخطيرة لابن شداد أنموذج جيد في هذا المجال ومثله الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة والمواعظ والاعتبار للمقريزي.

وقد استرعى أمر انتشار المدارس وتطور نظمها انتباه دارسين خصصوا مصنفات لتتبع تاريخها وتطورها وهي تقدم صورة شاملة عن الدور الإيجابي للحركة التعليمية في تاريخ العرب والمسلمين منذ أن قامت أول مدرسة في الإسلام، ومن بين هذه المصنفات:

- دور القرآن، للنعيمي.
- الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي.
- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، لعبد القادر بدران.
- تاريخ علماء المستنصرية، لناجي معروف.
- تاريخ التعليم في الأندلس، لمحمد عبد الحميد عيسى.
- وتاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، لمحمد عبد الرحيم غنيمة.

تلك لمحات تؤكد أن الأمية دخيلة مستحدثة.. لم تعرفها العصور الماضية، وأنى لها أن تكون في ظل حضارة مبنية على العلم تتجذر مؤسساته بأنماطها المختلفة في الأعماق الصلبة من باطن أرضه.

فأن تكون مكتبة في كل بلدة ومدينة.

وأن تكون كما هي في عالم اليوم المتحضر عامة ومدرسية ومتخصصة وملحقة بالجوامع والمساجد، وأن تكون المدارس العليا ومدارس الأطفال والمدارس الخاصة بالأيتام تفترش مساحة الأرض طولاً وعرضاً أينما كان انتماء إلى العربية والإسلام.

فلن تكون أمية..

ولن يكون منفذ لها تنطلق من خلاله.

دور الإنسان:

لقد أدت البيئة العلمية الراقية التي تكونت نتيجة تكاثر ركائز العلم في نمطيها الجماديين المكتبة والمدرسة، إلى دفع عشاق لخوض غماره، وإفناء حياتهم في تشربه ونقله إلى طلاب متعطشين له. ووضعوا مصنفات حفلت بإبداعات فكرية في موضوعات شتى، وقد يكون الحديث عن ذلك تفصيلياً فيه تكرار وإملال، لذلك سنأخذ أنموذجاً واحداً من العلماء لنرى من خلاله روح الخلاص والتفاني للعلم الذي أراده ذلك الأنموذج ليكون

وسيلة يخدم من خلالها المجتمع والناس دون كلالة تطرحه وتدفع به إلى الدعة والخمول. كما سنعرض لإطار معرفي واحد ليكون دلالة على بعض ذلك التوهج والإشراق الحضاري الذي كان.

وأنموذج العالم المتفاني الذي نطرحه هنا دفعنا إلى اختياره أنه ليس ممن شاع وذاع أمرهم بين الناس في زمننا على الأقل، وفي نفس الوقت هو أنموذج يمثل الموقف العام للبيئة العلمية في القرنين الرابع والخامس الهجريين والتي كانت بيئة منفتحة اتسعت لجميع أنماط المشاركين في تجذير الحضارة وترسيخها دون أن تضع قيوداً على بعضهم أو تعلي من شأن فئة منهم على أخرى، فكان أن برز الرياضي والطبيب إلى جانب المحدث والفقيه وشارك الأديب والمؤرخ في وقت واحد مع المهندس والفلكي وأسهمت المرأة بدور وإن كان أقل من دور الرجل إلا أن المسهمات برهن على أنه لم تكن هناك إعاقة لمن أردن منهن وعزمن بقوة وإصرار على المشاركة في حركة العلم.

هذا الأنموذج المختار يتمثل في امرأة تسنمت الذروة في تخصص علمي دقيق حظي الرجل بالجانب الأكبر من الشهرة فيه، إلا أن قرنها الذي عاشت فيه شهد لها بالبراعة والإتقان حتى كانت المرجع الذي يعول عليه الدارسون له والراغبون في تشربه في أصقاع العالم الإسلامي المعروف في ذلك العصر.

وتلكم كانت كريمة بنت أحمد المروزية، التي ولدت في عام ٣٦٥هـ في قرية كشميهن في خراسان وتلقت العلم هناك، حيث كانت تلك القرية تعج بعلماء أفاضل مشاهير، ومن كشميهن رحلت إلى مرو الشاهجان، ثم منها هاجرت إلى مكة المكرمة، حيث عاشت بقية عمرها منقطعة للعلم والتعليم.

أما التخصص الذي تفرغت له فكان الحديث النبوي الشريف الذي برعت فيه وجودته حتى قيل إنه انتهى إليها علو إسناد الجامع الصحيح للإمام البخاري[٦٠] في القرن الخامس الهجري وإنها كانت عالمة عصرها في الحديث بلغت فيه حداً لم يبلغه غيرها[٦١].

وقد اعترف لها أفاضل عصرها بمكانتها، وأصبح السماع منها مطلباً لكبار العلماء، وتدل الأسماء الكبيرة المنتمية إلى أقاليم إسلامية متفرقة في الشرق والغرب على أنها بلغت شأواً بعيداً في العلم وهي في مكة المكرمة، حيث كان لها مجلس يحضره العلماء والطلاب، وإلى ذلك المجلس جاء إليها عشرات العلماء

(٦٠) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ٦٩/١٠.

(٦١) العاملية، زينب بنت يوسف، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور. بيروت: دار المعرفة، ص ٤٥٨.

في القرن الخامس من بينهم: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد الذي قرأ صحيح البخاري عليها في خمسة أيام، والعلامة السمعاني صاحب كتاب الأنساب، ومسند مصر أبو عبد الله محمد بن بركات بن هلال السعيدي النحوي الذي يروي الصحيح عنها، وأبو بكر مجاهد بن عبد الرحمن بن مجاهد الحجري الطليطلي المالكي أحد مشاهير فقهاء الأندلس(٦٢)...

وما كانت كريمة لتصبح على تلك الدرجة من الجلالة.. وأن تكون في تلك المنزلة من تقدير أهل عصرها، وأن يقصدها أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي.. أو أبو بكر مجاهد بن عبد الرحمن بن مجاهد، لو لم تكن تملك علماً نافعاً غزيراً يلقي بظلاله على المتلقّين فيشملهم بالجديد النافع.

وإذا كان الغرب قد تشبع بصورة متدنية عن المرأة العربية المسلمة فإنها هي تلك الصورة التي نقلت إليه من خلال قصص ألف ليلة وليلة، وأقاصيص كتب السمر والحكايات، التي تعبر عن واقع وصلت إليه المرأة أو أراد البعض لها أن تكونه... غير أن

---

(٦٢) ساعاتي، يحيى محمود «كريمة المروزية عالمة مكة في القرن الخامس الهجري» الفيصل س ١، ع ١٠ (ربيع الثاني ١٣٩٨هـ ـ مارس/أبريل ١٩٧٨م) ص ٢٩.

الحق أن الإسلام لم يمنعها أن تكون إنساناً تمارس حياتها وتؤدي دورها في رفعة وكرامة، كما كانت عليه كريمة المروزية وعشرات غيرها ممن كسرن طوق الحجر وعشن حياة علم وعمل.

الإطار المعرفي هو الأنموذج:

أما الإطار المعرفي، فإن المقدم في المجالات الدينية والإنسانية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية والفنية كثير عرض له وتحدث عنه كل الذين ألموا بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، أما اختيارنا فكان للإطار العلمي البحت والتطبيقي لمقاربته بروح العصر الذي نحن فيه، حيث يعد وقود حضارة اليوم وركيزتها التي تقوم عليها، ولم يكن لأن أحداً لم يكتب عنه، إذ كتب عنه وأشاد به باحثون من العرب والمسلمين ومن المستشرقين.

لقد كان العطاء لمفكري العرب والمسلمين في العلوم ثرّاً غزيراً فيه إبداع وابتكار وفيه تنظير وتجريب جاء ثمرة طبيعية لوفرة المادة العلمية المترجمة والمؤصلة التي ضمتها مراكز العلم من مكتبات عامة ومكتبات مدارس ومساجد، ومن مدارس شاملة ومتخصصة.

واتجاه المسلمين إلى ميادين العلم كانت تمليه أهداف دينية في بداياتها:

وكان هدف المسلمين الأول، من الاهتمام بهذه الموضوعات معرفة أسس تحديد المواقيت واتجاه القبلة، فاستطاعوا باستخدام الهندسة أن يحددوا اتجاه القبلة، وباستخدام الفلك أن يحددوا بداية شهر رمضان المبارك، ثم لم يقتصر المسلمون في تطبيق العلوم التي طوروها على مطالب العبادة، بل استخدموها في كل ما فيه خير للبشرية(٦٣).

وإشراقة العلم وازدهاره في المجال العلمي تعود إلى فترة مبكرة، فهناك من يرى:

أنه يمكن اعتبار القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) القرنين الذهبيين للرياضيين المسلمين الذين يدين لهم العالم بالكثير، لحفظهم التراث القديم وتطويره، ولابتكاراتهم الجليلة في وقت كانت فيه أوروبا المظلمة قد أصيبت بانحطاط في دراسة الرياضيات، ولقد أكدت الأبحاث الحديثة المدى الكبير الذي يدين به العالم للعلماء المسلمين الذين حثوا على نمو المعارف بينما كانت أوروبا في ظلام دامس(٦٤).

وكانت المشاركة لعلماء عاشوا فترات الازدهار الحضاري

---

(٦٣) الدفاع، علي عبد الله / العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص ١٩.

(٦٤) شوقي، جلال وعلي الدفاع / العلوم الرياضية في الحضارة الإسلامية، الجزء الأول. ـ نيويورك: دار جون وايلي وأبنائه، ١٩٨٥م، ص ٢٢.

كبيرة وواسعة في ميدان الطب الذي حظي برعاية الخلفاء والحكام ليكون عاملاً على توفير خدمة صحية للأفراد من مختلف الطبقات، فجاءت المصنفات المتنوعة، فأبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد ابن السيد الغافقي الذي كان من أكابر علماء الأندلس وضع مصنفاً في الأدوية «لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه، قد استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ وأتم معنى، ثم ذكر بعد قوليهما ما تجدد للمتأخرين في الأدوية المفردة، أو ما ألم به واحد واحد منهم وعرفه فيما بعد فجاء كتابه جامعاً لما قاله الأفاضل في الأدوية المفردة ودستوراً يرجع إليه»[٦٥].

وشكلت أسرة ابن زهر الأندلسية حلقة متواصلة من العلماء الذين أكبوا على خدمة موضوع الطب بالتجريب والتصنيف، ومزاولة المهنة لخدمة الناس، فكان أولهم أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الإيادي الأشبيلي، ومن بعده جاء أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن محمد الذي وضع جملة من المصنفات الطبية من بينها «كتاب الخواص، كتاب الأدوية المفردة، كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على

---

(٦٥) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم / عيون الأنباء في طبقات الأطباء تحقيق نزار رضا. ـ بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م، ص ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحق في كتاب المدخل إلى الطب. كتاب على شكوك الرازي على جالينوس. . كتاب النكت الطبية»(٦٦)، ثم كان أبو مروان عبد الملك بن زهر بن عبد الملك، وله من الكتب المصنفة في هذا الموضوع: «كتاب التيسير في المداواةوالتدبير. . كتاب الأغذية. . كتاب الزينة. . مقالة في علل الكلى، رسالة كتب بها إلى بعض الأطباء بأشبيلية في علتي البرص والبهق. . .»(٦٧). وأعقب أولئك جميعاً الحفيد أبو بكر بن زهر، وبعده جاء ابنه أبو محمد عبد الله ابن الحفيد أبـي بكر.

وقبل الغافقي وآل ابن زهر كان أبو بكر الرازي الذي يعد رائد مرحلة التأصيل في مجال الطب التي أعقبت مرحلة الترجمة والنقل، وفي هذه المرحلة أصبحنا «نجد عوضاً عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة موسوعات منتظمة صنفت فيها معارف الأجيال السابقة تصنيفاً دقيقاً ووضعت مقابل المعلومات الجديدة»(٦٨). ويعتقد مايرهوف «أن أعظم أثر طبـي للرازي

---

(٦٦) ابن أبـي أصيبعة، ص ٥١٩.

(٦٧) السابق، ص ٥٢١.

(٦٨) مايرهوف، ماكس «العلوم والطب» في: تراث الإسلام تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد. ـ عربه وعلق حواشيه جرجيس فتح الله. ـ ط ٣. ـ بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨م، ص ٤٦٣.

وربما كان أوسع ما توصل إلى كتابته رجل طب، هو كتاب (الحاوي في الطب) الذي يتضمن في الواقع كل ما توصل إليه الطب السرياني والعربي من معرفة واكتشافات»[٦٩]، ويوضح مايرهوف منهج الرازي الذي مكنه من وضع هذا الكتاب فيقول: «لا شك في أن الرازي كان يجمع في حياته الآراء والمعلومات من كتب الطب التي كان يعكف على قراءتها والنظر فيها. فيدرجها جنباً إلى جنب مع تجاربه الطبية يجمعها كلها في أواخر أيامه ويعمل منها هذا الكتاب المدرسي العظيم»[٧٠].

بذور السقوط:

وكان الظن أن يثمر الحاضر بارتكازاته على صلابة الماضي المشرق حضارة رائدة تعم الأرض شرقاً وغرباً.

ولكن بذور السقوط جاءت ذات يوم.. تكتسي مسوحاً من الدعة والركون والاستسلام.. والدروشة، ووجدت متأخرة عوناً وتأييداً من قوى الاستعمار، شرقيّة وغربيّة، فشرخت صورة الجمالية العلمية التي ما كانت الآفاق تعرف نظيراً لها..

وجثم الاستعمار وأعوانه على صدر الأرض.

فكتم الأنفاس..

(٦٩) مايرهوف، ص ٤٦٤.

(٧٠) السابق، ص ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

وأفشى النوازع والرغبات التخلفية، وساعد على تنمية روح الـدجل وأغـرق المواطن المستعمـرة باتكـاليـة أعقبهـا إشعـار بالتفوق. . وعدم القدرة على المجاراة واللحاق. . فما الضـير من أخذ الفتات والتسلية. . بمشاهدة ومراقبة البطل الذي يصنع ويفكر وينتج. . فهو يخدم. . ونحن ندفع. . عادت الصحوة، وهي إن كانت متأخرة إلا أن ثمارها ستؤتي أكلاً، تعيد الروح. . وتنفث مجداً كان قروناً، نسفه الشرود واحتضان أحلام الخرافة ركضاً وراء الدراويش وفرق التصوف المظهري. .

الانعزال. . القبح. . التشـرد. . القذارة. . الاتكـالية. . تقديس الأشخاص، يقدم الجبرتي صورة ذات دلالة كبيرة جداً تؤكد سببية الدروشة وتقديس الأشخاص في الدفع إلى هاوية الأمية والقضاء على حضارة الازدهار الموروثة. . كما يقدم نماذج من ثقافة القرن الثالث عشر الهجري تبين أن التخلف قد فشا وساد وأن الإبداع قد غار وولى. . ولا نقصد أن القرن الثالث عشر هو بداية عصر الأمية، ولكنه خلاصتها وممثلها، ففيه وصل الانحدار قمته.

ونقف مع الجبرتي في حوادث شهر شعبان ١٢١٣هـ على صورة تدلل على سببية الدروشة والانحراف العقدي في إزهاق روح الحضارة وإطفاء نور العلم بإحلال ضلالات كسلية، فبعد أن كانت المكتبة والمدرسة. . وحلقات العلم هي لب الحياة في كل

صقع، جاء دور التلاعب والانصراف إلى اللهو وتحميل الدين زوراً وبهتاناً نمطية غريبة من التهريج البذيء.

وقد ربط الجبرتي بحذق بين هذا الاتجاه الانحطاطي وفرح الفرنسيين وإعجابهم وتشجيعهم لاستمراره، بل وعملهم على تعميق جذوره بين عامة الناس، فأي معين لهم خير من الدجل والضلال المؤدي إلى إسكات روح المقاومة وإحلال التخاذل والتراجع وإشاعة الجهل، ومن ثم يكون لهم التمكن من الإنسان والأرض.. ورغم طول النص فإن أهميته تستدعي إدراجه هنا لتأمل ما فيه من ظلال وإيحاءات ذات دلالات بعيدة الغور:

شهر شعبان المعظم سنة ١٢١٣هـ..

وفي يوم الأحد سادسه نادى القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني على أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين، وشدد في ذلك، ووعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرنسية مكافأة له على ذلك، وكان السبب في ذلك والأصل فيه أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوي بن فتيح مباشر وقف المشهد فكانَ قد اعتراه مرض الحب الإفرنجي فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه اللّه تعالى، فحصلت له بعض إفاقة، فابتدأ به وأوقد في المسجد والقبة قناديل وبعض شموع، ورتب فقهاء يقرأون القرآن بالنهار مدارسة وآخرين بالمسجد يقرأون بالليل دلائل الخيرات للجزولي، ثم زاد الحال وانضم إليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفي والسمان والعربي والعيسوية، فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة

ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات ومنهم من يقول أبياتاً من بردة المديح للبوصيري ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبالة بعضهم صفين ويقولون كلاماً معوجاً بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها، وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ضرباً شديداً مع ارتفاع أصواتهم وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضـون ويضربـون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة، بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة، وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوي عظيم وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة وكيفية تباين الأخرى، هذا مع ما ينضم إلى ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلى حسـان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتتان بهم، ورمي قشور اللب والمكسرات والمأكولات في المسجد، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاة الماء، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم ازداد الحال على ذلك بقدوم جماعة الأشاير من الحارات البعيدة

والقريبة وبين أيديهم مناور القناديل والجوامع العظيمة التي تحملها الرجال والشموع والطبول والزمور ويتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها وينسبون من يلومهم أو يعترضهم إلى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة، ومن لا يملك قوت ليلته فتجد أحدهم يجتهد بقوة سعيه ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها في وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وكل يجتمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهراناً ويصبح دايخاً كسلاناً ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد. واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين، ولم يزدد الناذر لذلك إلا مرضاً ومقتاً واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خفاف العقول مثل الشمع والدراهم، واتخذوا ذلك حبالة لأكل أموال الناس بالباطل. فلما حصلت هذه الحادثة بمصر ترك هذا المولد في جملة المتروكات ثم حصلت الفتنة التي حصلت وسكن هذا الفرنساوي في خط المشهد الحسيني لضبط تلك الجهة وفيه مسايرة ومداهنة، فصار يظهر المحبة للمسلمين ويلاطفهم ويدخل بيوت الجيران ويقبل شفاعة المتشفعين ويجل الفقهاء ويعظمهم ويكرمهم، وأبطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم في غير هذه الجهة، وكذلك منع ما يفعله القلقات من أنواع التشديد على الناس في مثل القناديل فاطمأن به أهل الخطة وتراجعوا للبكور إلى الصلاة في المساجد بعد خوفهم من العسكر الذي رتب معهم وتركهم التبكير. فلما أنسوا به وعرفوا أخلاقه رجعوا لعادتهم ومشوا بالليل أيضاً بدون فزع وخوف وترجمانه على مثل طريقته وهو رجل شريف من أهل حلب،

كان أسيراً بمالطة فاستخلصه الفرنسيس في جملة من استخلصوه من أسرى مالطة وقدم معهم مصر، فلما أجلس هذا الضبط الخط، كان ترجمانه يهودياً فاحتال بعض أعيان الجهة ورتب هذا الشريف المذكور ليكون فيه راحة للناس ففتح له قهوة بالخط بالقرب من دار مخرومة وجمع الناس للجلوس فيها والسهر حصة من الليل وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقداراً من الليل كعادتهم القديمة، فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلي والخلاعات وعم ذلك جهات تلك الخطة ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة، وتلك هي طبيعة الفرنساوية، فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته وهي من أولاد البلد المخلوعين أيضاً، فانساق الحديث لذكر هذا المولد الشهري وما يقع في لياليه من الجمعيات والمهرجان وحسنوا له إعادته فوافقهم على ذلك وأمر بالمناداة وفتح الحوانيت ووقود القناديل وشدد في ذلك[71].

تلك صورة قاتمة.

تمثل بشاعة في السقوط

ما عاد من علم هناك يكون شغل القوم ومرادهم...

بل لهواً

---

(71) الجبرتي، عبد الرحمن (ت ١٢٣٧هـ) / تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار. ـ ط ٢. ـ بيروت: دار الجيل، ١٩٧٨م، ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٤.

وأي لهو مشين. . . تحولت المساجد التي كانت ذات يوم صروح العلم ومقاره إلى أماكن لتجمع الباحثين عن اللهو والتسلية باسم الدين، ووجد كل ذلك مساندة ودعماً من الفرنسيين.

فكان أن شجعوا عليه أي تشجيع، وما ذكره الجبرتي في تاريخه خير مصداق على دور الاستعمار والقوى الأجنبية في دحر ما بقي من ازدهار فكري في القرن الثالث عشر على وجه الخصوص وتحويل العالم العربي والإسلامي إلى ساحة تحفل بالمتناقضات والمناقضات والنواقص والفساد باستجلاب الفكر الخرافي الذي كان مداره الدروشة والتصوف الهازل.

وللتأكيد على ما أسهم به الاستعمار الفرنسي في ترسيخ جذور الأمية الفكرية في العالم العربي نورد إشارة أخرى للجبرتي يوضح فيها كيف أعاد الفرنسيون مولد الحسيني مرة أخرى وقسروا الناس على الاحتفال به قسراً، فيقول:

«واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الأحد سنة ١٢١٤ في أوائله، ابتدأوا في عمل مولد المشهد الحسيني وقهروا الناس وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر ووقود القناديل عشر ليال متوالية آخرها ليلة الخميس ثاني عشرة»[٧٢].

(٧٢) الجبرتي، ٢/٣٠٤.

ومن مولد الحسيني إلى مولد البكري الذي يتحدث الجبرتي عنه قائلاً في حوادث سنة ١٢١٤ أيضاً:

وفي عشرينه نودي بعمل مولد السيد علي البكري المدفون بجامع الشرابيي بالأزبكية بالقرب من الرويعي، وأمروا الناس بوقود قناديل بالأزقة في تلك الجهات وأذنوا لهم بالذهاب والمجيء ليلاً ونهاراً من غير حرج، وقد ذكر بعض خبر هذا السيد وأنه كان رجلاً من البله وكان يمشي بالأسواق عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين غالباً، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به، واستمر على ذلك مدة سنين، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه، فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثياباً وأظهر للناس أنه أذن له بذلك وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك، فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه والإنصات إلى تخليطاته وتأويلها بما في نفوسهم، وطفق أخوه المذكور يرغبهم ويبث لهم كراماته وأنه يطلع على خطوات القلوب والمغيبات وينطق بما في النفوس، فانهمكوا على التردداد إليه وقلد بعضهم بعضاً وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شيء وخصوصاً من نساء الأمراء والأكابر، وراج حال أخيه واتسعت أمواله ونفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة، حتى صار مثل البو العظيم، فلم يزل على ذلك إلى أن مات في سنة سبع بعد المائتين كما تقدم، فدفنوه بمعرفة أخيه في قطعة حجر عليها من هذا المسجد من غير مبالاة ولا مانع، وعمل عليه مقصورة ومقاماً وواظب عنده

بالمقرئين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه في قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك، ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط ويضعونه في أعبائهم. وصار ذلك المسجد مجمعاً وموعداً. فلما حضر الفرنساوية إلى مصر تشاغل عنه الناس وأهمل شأنه في جملة المهملات وترك مع المتروكات، فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج من الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات، أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد[73].

والنصوص السابقة تؤكد صراحة الدور الاستعماري في إنخفاض مستوى الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي وصرف الناس عن التفكير في العلم والثقافة إلى الانغماس في موالد الأولياء.. على مدار العام.. وإذا كان ذلك ما كان يجري في مصر.. فلا شك أن مثله كان يسيطر على مناطق أخرى هدها الجهل الذي خيم نتيجة بتر روح التصدي للخرافة والاستسلام لأساطير أدعياء الولاية من الضلال والكذابين، وبالتالي عدم الاكتراث بقيمة العلم والتعلم، فهجرت المدارس ونكبت دور الكتب... فكانت قصص الإهمال التي توحي بانفصام عرى

(٧٣) الجبرتي، ٣٠٥/٢ ــ ٣٠٦.

التواصل بين جيل الماضي الزاهر.. وجيل التخلف في فترات الاسترخاء والاستسلام للخرافة والدجل... سطا الأوروبيون على تراث الماضي الممثل في الآلاف من المخطوطات التي أهملها أصحابها.. وباعها ورثة وسراق بحفنات من النقود.

وما كان في الأفق أفضل من ذلك في ظروف لم يعد العلم أو الفكر يمثل قيمة فيها... أو يشكل مطلباً لأهلها.

وإذا كانت صورة الاحتفال بمولدي الحسين والبكري على درجة كبيرة من القباحة والسوء تدلل على ترد في مهاوي الأمية وانصياع لقوى الجهل، فإن هناك ما يناقضها في قرون سابقة، حيث العلم هو الغاية والسعي إليه رغبة وأملاً وحصول شيء منه مطمح الأنفس، ومهماز السعادة لأفراد كثر، فقد احتفي في اليمن بدخول أول نسخة من فتح الباري احتفاء منقطع النظير يصوره أحد المؤرخين المعاصرين للحادثة فيقول:

> وفي الشهر المذكور (صفر من عام ٩٠١هـ) قدم إلى مدينة زبيد بكتاب فتح الباري لشرح البخاري للحافظ شهاب الدين ابن حجر من البلد الحرام وهو أول دخوله اليمن، وكان مولانا السلطان أرسل لشرائه فاشتري له بمال جزيل ثم قدم به الرسول إلى مدينة زبيد ثم توجه به إلى باب السلطان فواجهه به في مدينة تعز، وهذا الكتاب من آيات الله الكبرى.
>
> ثم توجه الأمير علي بن شجاع بجميع ما معه إلى الأبواب

الشريفة وليواجه السلطان بمدينة تعز صبح يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر.

وفي يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر المذكور قدم الفقيه جمال الدين محمد بن أحمد العطاب من الأبواب الشريفة إلى محروسة زبيد وفي صحبته كتاب شرح البخاري المذكور فحصل منه نسخة جديدة بخطوط معتبرة، وقوبلت بأصلها ووقفت بالجامع الظافري بزبيد[٧٤].

كان ذلك الإشراق العلمي سمة لا تزال تحتل مكانة في نفوس القوم في القرن العاشر الهجري..

ظل هناك إبداع

وظل هناك احتفاء بالكلمة وتوجه نحو الفكر النقي

وما كانت التعاسة المحمولة على جناح الأمية البغيضة قد توثقت وتمكنت من فرش بساطها على كافة الأرض العربية والإسلامية.

الثمرة الآثمة:

سقطت عصور الازدهار. لتحل الأمية عن طريق الدجل والدروشة والاستسلام لخرافة الولاية التي ادعاها جهلاء من أمثال البكري الذي يصفه الجبرتي في النص السابق بأنه كان رجلاً من

(٧٤) ابن الديبع الشيباني، ص ص ٩٥ ـ ٩٦.

البله وكان يمشي عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين غالباً، وأوغل المستعمر في الاستفادة من فرص الضياع التي كانت تعيشها العامة لفقدان القيادات الموجهة سياسياً ودينياً في أغلب مناطق العالم الإسلامي، فرسخ مفاهيم الجهل وغرس روح الإعجاب بذوي الخداع والمكر، واستل من النفوس كل ما يوحي بتوجه نحو العلم والعمل.

ويتناقض موقف الاستعمار الفرنسي المشجع للخرافة والمعين على إشاعتها ونشرها في القرن الثالث عشر الهجري مع موقف الخليفة العباسي المقتدر عندما واجه فتنة الحلاج في القرن الرابع الهجري فاجتث أصولها وسحقها بقوة فقضى على بذور فساد كانت ستؤدي إلى أمية مبكرة يسوق إليها قبول الفكر الاسترخائي الذي دعا إليه الحلاج.

وقد مجد الاستعمار وأذنابه من المستشرقين الحلاج وجعلوا منه مناضلاً مدافعاً عن الحرية، ومن الذين كتبوا عنه وحسنوا صورته في العصر الحديث اثنان من أكبر أعداء العروبة والإسلام جولدزيهر ولويس ماسينون وانتقلت عدوى الإعجاب به إلى بعض العرب الذين اتخذوه رمزاً للنضال وضحية للاضطهاد الفكري، وما كان كذلك فقد أثبتت مصادر التراث القريبة من عهده مثل الفهرست لابن النديم وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي خروجه

عن العقيدة وعمله من أجل تخريب الفكر الإسلامي بإدخال خرافات وأباطيل، ومن يقرأ سيرته في تاريخ بغداد[٧٥] سيجد ما أصابها من تخليط وإن كان الواضح أنه كان مشعوذاً مخرباً لا يختلف عن البكري الذي وصفه الجبرتي بالبله والغفلة.

وإلى جانب فكر الدروشة والاسترخاء اللذين انتشرا في القرن الثالث عشر وجاءت جذورهما من قرون متلاحقة، يمكن أن نضيف عوامل أخرى ساعدت على إجهاض الثقافة العربية الإسلامية وتمكين الأمية وترسيخها، من بينها سيطرة أنماط تافهة من الوجهاء والعلماء حسب مقاييس ذلك الزمن على مسيرة الفكر والعلم والحياة انعكست على سلوكهم ظلال الأمية المقيتة فكانوا النماذج والقدوة.

وبئس النماذج كانوا

وبئس القدوة المهلكة لمعاصريهم ولمن جاءوا من بعدهم

كان الفكر والعلم لديهم خليطاً من الشعوذة والخرافة والدجل.

وحتى لا يكون الكلام مجرد اتهام سنعود إلى الجبرتي ليحدثنا عن بعض أولئك الأعلام...

---

(٧٥) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) / تاريخ بغداد. ـ بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت، ٨/١١٢ ـ ١٤١.

ففي وفيات ١٢٠١هـ أشار إلى إنسان ترجم له وتحدث عنه بطريقة تدفع المرء إلى الاعتقاد أنه أمام رائد مبدع أسهم في حركة الفكر العربي الإسلامي بمصنفات جليلة، ولكن الخيبة هي التي سيحصدها بعد أن يقرأ ما كتبه عنه، حيث يقول:

توفي الإمام العالم العلامة أوحد وقته في الفنون العقلية والنقلية شيخ أهل الإسلام وبركة الأنام الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي الأزهري الخلوتي الشهير بالدودير. . حضر دروس العلماء. . وتلقن الذكر وطرق الخلوتية من الشيخ الحفني. . وله مؤلفات منها شرح مختصر خليل أورد فيه خلاصة ما ذكره الأجهوري والزرقاني. . وتحفة الإخوان في آداب أهل العرفان في التصوف. . وله شرح على ورد الشيخ كريم الدين الخلوتي ورسالة في المولد الشريف ورسالة في شرح قول الوفائية: يا مولاي يا واحد يا دائم. . ورسالة في شرح صلاة السيد أحمد البدوي. . والتوجه الأسني بنظم أسماء الله الحسنى[٧٦]. .

ثم ترجم لآخر لا يقل عن سابقه، توفي أيضاً في عام ١٢٠١هـ فقال: والشيخ الفاضل المجذوب صاحب الأحوال محمد بن أبي بكر بن محمد المغربي الطرابلسي الشهير بالأثرم. . وتنسب جدوده إلى خدمة المولى الصالح الشهير سيدي

(٧٦) تاريخ عجائب الآثار، ٣٢/٢ ــ ٣٣.

أحمد زروق.. وغلب عليه الجذب في مبادىء أمره، وحفظ جملة من كلام الشيخ المشار إليه ومن كلام غيره(٧٧). وثالث توفي في سنة ١٢٠٤هـ قال عنه:

العلامة الرحالة الفهامة الفقيه المحدث المفسر المحقق المتبحر الصوفي الصالح الشيخ سليمان بن عمر بن منصور العجيلي... لازم الشيخ الحفني فشملته بركته وأخذ عنه الطريقة الخلوتية ولقنه الأسماء وأذن له واستخلفه.. واشتهر بالزهد والصلاح ويتردد كثيراً لزيارات المشايخ والأولياء(٧٨)...

فالإمام العالِم العلاّمة أوحد وقته في الفنون العقلية.. كان من مؤلفاته تحفة الإخوان في التصوف وشرح على ورد الشيخ كريم الدين ورسالة في المولد ورسالة في شرح قول الوفائية وهي فرقة صوفية أيضاً: «يا مولاي يا واحد» ورسالة في شرح صلاة السيد البدوي..

أما العلم الآخر فإن شهرته تعود إلى أن أسرته كانت تخدم الولي أحمد زروق.

أما الثالث فقد كان من أجل صفاته أن شملته بركة الشيخ الحفني وأخذ عنه الطريقة الخلوتية وهي طريقة صوفية أيضاً، واشتهر بزيارة المشايخ والأولياء.

---

(٧٧) تاريخ عجائب الآثار، ٢/٣٦.

(٧٨) السابق، ٢/٨٨.

والأعلام الثلاثة نماذج صارخة للانحدار الفكري في القرون المتأخرة فأن تطلق ألقاب توحي بعظم الشأن على إنسان يضع أعمالاً سقيمة تافهة تتمثل في كتب خرافية يعكس لنا سوء الحال وتفشي الأمية وانتشارها نتيجة وجود علماء من أمثاله كانوا يقودون حركة الفكر في مناطقهم في فترات وجودهم.

كان عبء الأمية ثقيلاً ظل زمناً يجثم بثقله البغيض، ونحن إن كنا قد بدأنا السير في الطريق نحو العودة الحضارية فإن ذيول الأمية تحتاج إلى جهاد مضن للتخلص منها وأهم ما يحتاج إلى أن نخلص منه هذا التمرغ الذي تشهده بعض أقطار العرب والمسلمين في أوحال التقديس لأدعياء الخرافة والضلال التي تشل الفكر وتوجهه نحو الخمول.

فكر السقوط:

وإذا كان القرن الثالث عشر قد شهد تلك الأنماط الحافلة من الذين نسبوا إلى العلم زوراً وبهتاناً فإن الركيزة تعود إلى فترة سابقة، فقد شهد القرن الحادي عشر أنماطاً متخلفة من النتاجات الفكرية تدعو إلى العجب والدهشة تجعله أنموذجاً جيداً لفترات التراجع وسيادة الخمول الفكري.

وأكثر ما يوضح ذلك مراجعة عناوين ما كان يصنفه أعلام ذلك القرن.

فعلى سبيل المثال: نجد درويش مصطفى بن قاسم الطرابلسي الذي يعتبر من رجال العصر البارزين يصنف أعمالاً لا تخرج عما كان يسود عصره، وعناوين ما صنف تدلل على منحاه الفكري المتميز بالتصنع والكلفة والجري وراء قضايا عقيمة فهويضع مصنفاً بعنوان (هتك الأستار في وصف الأعذار)، ويرى في أحد المتصوفة ما يثير إعجابه فيكتب عنه (الدر الملتقط من بحر الصفا في مناقب سيدي أبي الأسعاد بن وفاء)، ويحابي أحد أعلام عصره فينتهز فرصة بناء ذلك العلم لمنزل في مكان بالمدينة المنورة فيضع له تاريخاً وينظم فيه أبياتاً سقيمة يقول فيها:

بشراك يا من صار جار الكريم
بطيب عيش أنت فيه تقيم
أصبحت في خدمة خير الورى
ترفل في روض جنان النعيم

بطيبة طابت لمن حلها
حديث ودي في هواها قديم
طوبى لمن أمسى مقيماً بها
يلقى أهاليها بقلب سليم

مصاحب السلطان تلقى المنى
بما ترجى من غفور رحيم
بنيت ايواناً به قد سما
ببشر ودي للصديق الحميم

بـــغـــايـــة الاحـــكـــام تـــاريـــخـــه
مـقـعـــد أنس شـــاد عـبـــد الـحـــكـيـــم

وقد لقي هذا الكلام بعض القبول بين أبناء ذلك العصر فتناقلته الألسن.

ولكن هذه الأبيات تحولت فجأة إلى قضية.. فكان أن هزأ بها فتح الله النحاس الحلبي، وضمن رأيه فيها ونقده عليها في رسالة أطلق عليها (التفتيش على خبالات درويش) فأزعج عمل النحاس أحد مؤيدي ومحبي درويش فدافع عنه وعن أبياته في مصنف وضعه جعل عنوانه (نصر من اللّه وفتح قريب) ترجم فيه لدرويش وامتدحه وجمع فيه كما يشير المحبي في خلاصة الأثر «غرائب الفوائد وفرائد القلائد ما تقر به العيون وتنشرح له الصدور»[٧٩].

ويعجب الإنسان كيف تثير تلك الأبيات التي لا روح فيها ولا صلة بينها وبين الشعر قضية يخوض فيها الخائضون ولكن يزول العجب عندما ندرك أن تلك كانت سمة العصر الذي خيم عليه التبلد وعاش أعلامه في ظلام فكري نتج عن الاستسلام لتفوق القديم وقلة الحيلة في الخروج عن التكلف والإغراق في جزئيات عقيمة.

---

(٧٩) المحبي، ٤/٣٨٧ ـ ٣٨٩.

ويشغل مؤلف آخر نفسه بمسألة السيل الذي وقع في مكة خلال ذلك القرن في البيت الحرام وكان المنطق أن يتم إعمار ما سقط وإصلاح ما تلف دون حاجة إلى تحويل السيل وما ألحقه من أضرار إلى مشكلة عويصة يتفنن صاحبنا في معالجتها في كتب متعددة جاءت على مراحل:

ففي المرحلة الأولى يصنف لنا كتاباً بعنوان «إعلام سائر الأنام بقصة السيل الذي سقط منه البيت الحرام» وليت صاحبنا اكتفى بذلك الإعلام إذ فيه بلا شك تدوين تاريخي مفيد لمتتبعي تاريخ الحرم المكي.

ولكنه ينتقل إلى مرحلة ثانية يثير فيها مشكلة محتواها من يقوم بإصلاح التالف من العمارة ويضمن ذلك رسالة يطلق عليها (نشر ألوية التشريف بالإعلام والتعريف بمن له ولاية عمارة ما سقط من البيت الشريف) وقد ناقش فيه مسؤولية العمارة واتفق مع علماء عصره على أنها فرض كفاية على سائر المسلمين وأن حاكم مكة له القيام بذلك.

غير أنه تراجع عن رأيه وأوضح تراجعه في عمل يمثل المرحلة الثالثة دعاه (البيان والإعلام في توجيه فريضة عمارة الساقط من البيت لسلطان الإسلام) وهكذا نقل المسؤولية عن حاكم مكة ووضعها على كاهل سلطان الإسلام شخصياً ولا ندري

عن الأسباب التي دفعت به إلى ذلك أو الحجج التي اعتمد عليها في هذا التعقيد الذي يقترب من تعقيد الروتين في بعض الدوائر الحكومية في العصر الحديث عندما يكتب على معاملة من المعاملات أن تمضي فترة من الزمن تدور بين أيدي رؤساء الدوائر والمكاتب كل يكتب عليها ويشرح ويذيل حتى تضيع معالم القضية الأصلية ولعلهم تأثروا تقليداً بهؤلاء السلف.

ولم يقتنع ابن علان الصديقي صاحب ذلك الروتين التصنيفي بتلك التعقيدات التي وضعها، فواصل إضاعة وقته وجهده في كتاب آخر سماه «فتح الكريم الفتاح في حكم ما سد به البيت من حصر وأعواد وألواح» وهو هنا بلا شك يقف على سدة المغالاة في إزهاق الوقت فيما لا طائل منه ويضع نفسه أنموذجاً صارخاً للضياع الفكري الذي عانى منه ذلك القرن.

ويواصل ابن علان القضية التي اختلقها فيكتب لنا ما يطلق عليه (فتح القدير في الأعمال التي يحتاج إليها من حصل له بالملك على البيت ولاية التعمير) ويثني برسالة يعنونها بـ (أسنى المواهب والفتوح بعمارة المقام الإبراهيمي وباب الكعبة وسقفها والسطوح).

والعجيب في الأمر أن هذه المصنفات التي لا تقدم ما يفيد والتي لم تكن قضية السيل تحتاج إليها أصلاً سار بها الركبان

واشتهرت في الآفاق في ذلك الزمان كما يشير المحبي[٨٠].

ويتخصص كاتب آخر وهو محمد الدلائي الفشتالي في تصنيف رسائل حول أمور نحوية قتلت بحثاً ودرساً فيضع مجموعة كتب تحمل العناوين العجمية التالية:

«فصل الخصمين في متعلق الظرفين» و«الدلائل القطعية في تقرير النصب على المعية» و«التحرير الأسمى في إعراب الزكاة اسماً» و«رفع اللبس عن ورود تفعل بمعنى فعل والعكس»[٨١].

ويبلغ الأمر بآخرين إلى الخوض في مسائل علمية وأدبية وشرعية يعالجونها تحت عناوين مضحكة.

فأحدهم يختصر الكشكول للبهاء العاملي فلا يجد ما يطلقه على مختصره غير (الزنبيل)[٨٢]. والله وحده يعلم ما كان يضمه ذلك الزنبيل النفيس من تجميعات نقلت عن تجميعات العاملي.

ويعجب تاج الدين ابن يعقوب بقصيدة للعفيف التلمساني أولها:

---

(٨٠) خلاصة الأثر، ١٨٨/٤.

(٨١) المحبي، ٢٠٣/٤.

(٨٢) المحبي، ٢٨/٤.

فيشرحها في كتاب بعنوان «تطبيق المحو بعد الصحو على قواعد الشريعة والنحو»[٨٣] ويبدو أن بعض مؤلفي تلك الفترة كانوا يكتبون في وقت تنازعهم فيه الرغبة في الأكل فتأتي عناوين طعامية مثلها كتاب «حقيقة زبدة لبن الشريعة بحركة مخض سلوك الطريقة» لحسن باشعيب[٨٤] وكذلك كتاب «موائد الفضل الجامعة لبابا في موارد الرمل النافعة أحباباً» لسالم بن شيخان[٨٥].

ويجد محمد كبريت المدني الذي كان من أبرز مؤلفي تلك الفترة التعيسة متسعاً من الوقت لديه فيكتب كلاماً يستغرق مجلدين بعنوان «بسط المقال في القيل والقال» ولا نعرف أي قيل وقال ذلك الذي قصد إليه كبريت وخصه بعمل في مجلدين. ويستعرض نفس المؤلف ثقافته العريضة ليكتب لنا عن الدنيا والآخرة كتاباً يدعوه «العقود الفاخرة في أخبار الدنيا والآخرة»[٨٦].

ويتناول ابن إسرائيل اليمني قضية علمية يلتقطها من كتب كثيرة في هذا المجال ويفرغ ما جمعه في «المشمة النفاحة بتحقيق

---

(٨٣) المحبي، ١/٤٥٨.
(٨٤) المحبي، ٢/١٥.
(٨٥) المحبي، ٢/٢٠١.
(٨٦) المحبي، ٤/٢٨ ـ ٢٩.

المساحة»[87]، ومن الظواهر التي سيطرت على مؤلفي الفترة كتب الشعوذة حتى كان لواحد منهم وهو ابن شيخان مجموعة منها: «مصباح السر اللامع بمفتاح الجفر الجامع» ويرغب نفس المؤلف في تحديد عمر الزمن فيؤلف «غرر البيان عن عمر الزمان» ويكشف في كتاب ثالث عن أسرار الحروف ويقدم ذلك تحت عنوان «العقد المنظوم في بعض ما تحتوي عليه الحروف من الخواص والعلوم»[88].

ولعل كافة هذه العناوين تدفع إلى الاعتقاد بأنها مختلقة غير أنه برحلة في بطون كتب التراجم وعلى الأخص خلاصة الأثر للمحبي سنجد أنها لا تحصى لكثرتها وأنها قد غلبت على كثير من مؤلفات القرون المتأخرة حتى بداية النهضة العربية الحديثة.

وهذه العناوين التي عرضنا لها توضح ما وصل إليه الفكر العربي من تراجع وتبين مدى اهتمام أعلام تلك القرون بالصنعة المنفرة وتظهر ولعهم بتناول موضوعات فرعية لا تقدم جديداً وتبين لنا دوران أغلبهم في حلقة مفرغة لا موضع فيها لتوجه نحو ابتكار أو مناقشة للقضايا التي تقدم إضافة للفكر العربي ومن هنا كان الإهمال نصيب أغلبها إذ أن محتواها كان ضيقاً يدخل الملل على نفوس المطالعين والقراء.

---

(٨٧) المحبي، ٤/١١.

(٨٨) المحبي، ٢/٢٠١.

وقد أسهمت نتاجات ذلك القرن وما سبقه ولحقه من قرون في إعاقة تقدم الفكر العربي، وأخرت كثيراً فترة الصحو ورسخت مفاهيمها المتخلفة حتى وقتنا الحاضر إذ لا زال بعض الكتاب والمؤلفين يسيرون في فلكها وذلك بتناول موضوعات لا تتسم بروح الجدة ولا تقدم حقيقة أي إسهام يتفق وواقع العصر ومتطلباته.

المآخذ:

إن ما نخلص إليه من خلال ما أوردناه في الصفحات السابقة هو أن الأمية التي ورثناها وكانت سمة وعلامة مميزة للمجتمعات العربية والإسلامية خاصة في القرون التالية للقرن العاشر الهجري، تسللت من منافذ عديدة نذكر منها:

١ ــ سيطرة الفكر التخلفي القائم على دعوات استرخائية تنادي بآراء وأفكار غريبة ليس لها قاعدة من واقع ولا تسهم في تشييد أو بناء بقدر ما تؤدي إلى استسلام وتراخ ورضوخ، ونبع عن الفكر الاسترخائي الذي تقمص آراء وفلسفات أجنبية ظهور عادات التقديس للأحياء والأموات. فكان انصراف الجهد إلى احتفالات الموالد للأولياء.. وشد الرحال إلى الأضرحة والمقابر وتبذير الطاقة في أعمال استهلاكية لا فائدة من ورائها غير إهدار قيمة الزمن وعدم الاهتمام به وسيلة لبناء وإعمار الأرض من خلال

كسب الوقت في التعليم والدرس، والتفكير المعين على إيجاد سبل تسهم في رقي الإنسان، وتمكينه من الحصول على حاجياته وتوفيرها له، وتشييد إرث علمي ينفع أجيالاً تالية.

٢ ـ انطفاء شعلة الإبداع وانصراف دارسي العلم إلى الانصياع لتيار الجمود اكتفاء بما صنعه القدماء والاتكال على فكرهم كلية وبالتالي استغراق الوقت في قراءات هامشية تستند على متون وشروح وحواشٍ ومختصرات لا تحمل من العلم إلا أقله، يكرر بعضها بعضاً بطرق متفاوتة وهو ما قد يكون سبباً في انصراف كثير من الناس عن الأخذ والتلقي للملالة التي احتوى عليها نمط الدرس العلمي المقدم دون أن يكون هناك ما يسهم في جذب أو استقطاب يسمح بتجاوز روح التقييد.

٣ ـ سيطرة عناصر غير واعية بمسيرة الحضارة العربية الإسلامية على مقدرات العالم العربي سياسياً لم تجد ما يربطها بتراثه وفكره، ولم تبد رغبة في تأصيل فكري لأنها لا تفهم ما يقدم، وبالتالي لم تجد ما يستدعي العمل على نشر معرفة أو علم، وإذا كان من رد بأن مصر في عهد المماليك شهدت ازدهاراً في حركة المعرفة والعلم فما ذلك إلا مواصلة للمرحلة القديمة السابقة والدليل هو خمود شعلة المعرفة تدريجياً في أثناء حكمهم.

٤ ـ توالي الضربات على العالم الإسلامي من الشرق والغرب في استمرارية عجيبة منذ المواجهة مع الروم والفرس حتى الاجتياح المغولي البربري والزحف الصليبـي، وما أدى إليه احتلالهما لمناطق من الأرض العربيـة الإسلاميـة من تخريب ودمار، ولكن قيمة البناء لم تسمح بتحطيم حضارة العلم والكتاب فظلت صلبة قوية، بل احتوت الغزاة وحولت برابرة المغول والتتار إلى محبـي علم ومعرفة، وليس أدل على ذلك من تشييد مرصد مراغة وإيجاد مكتبة ضخمة فيه على يد نصير الدين الطوسي في عهد دولة المغول نفسها وبعد سقوط بغداد مدينة العلم في ذلك الوقت، كما أن الصليبيين وجـدوا في المنطقـة التي احتلوها واستعمروها ما يدفع إلى عجب ودهشة فكان أن قلدوا، وكان أن أخـذوا وكان أن حملوا علمـاً وحضارة إلى مـواطنهم الأصلية في أوروبا.

لكن توالي التخريب إثر التفكك في بنية الدولة العربية الإسلامية ومجيء الاستعمار الغربـي فيما بعد.. وسيطرة عناصر مختلفة غريبة عن المنطقة أدى إلى تراخ في العلم، وتحول نحو الدروشة والتصوف الخرافي المليء بالشعوذات والدجل فكان الرضوخ والاستسلام للجهل مما أوضحنا بعض صوره نقلاً عن الجبرتي، ونضيف هنا بعض ما كان عليـه الوضـع في مناطق إسلامية كثيرة، لا زال فيها شيء مما كان حتى اليوم فروجي

لوتورنو. . . يعرض لوضع المسلمين عقيدياً واجتماعياً في دراسة له بعنوان (افريقية الشمالية: التشدد والارتباك)، فيقول:

فعبادة الأشخاص المقدسين التي وجدت كما رأينا تحت ستار الصوفية لم تمت الآن، وتحتفظ البركة بجانب كبير من سمعتها بين الجماهير. . ولا تتجه عبادة الأولياء إلى الأحياء فحسب، بل إلى الأموات أيضاً، وإن كبار الأولياء. . وصغارهم لا يزالون موضع التبجيل بحماسة بالغة. . وإن الذكر الذي يمارسه جميع أتباع الطوائف الدينية بنصوصه المرتبة على نظام خاص التي تتلى عدداً من المرات والتي تحدد تحديداً صارماً، كل هذا تتجلى فيه جميع مظاهر العلاج الروحي(٨٩).

ورغم أن صورة الإسلام كانت على ما وصف لوتورنو في أغلب مناطق العالم العربي والإسلامي إلا أنه لم يفته أن ينفي أن تكون حقيقة الإسلام كما هي في تلك الصورة المشينة فأنهى حديثه قائلاً: «وإذا تركنا مجال هذه الخرافات التي ليست من الإسلام في شيء تبين لنا بوضوح أن إسلام العوام يتضمن عدداً آخر من التناقضات. . .»(٩٠).

---

(٨٩) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية تحرير ج. أي. فون كرونباوم. ــ ترجمة صدقي حمدي. ــ بغداد: مكتبة دار المثنى، ١٩٦٦م، ص ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠.

(٩٠) ص ٣٦٠.

الحاضر وعودة إلى الماضي:

وتحسر عالم عربي مسلم على وضع المدارس في عهده بعد أن عرض لأحوالها في القديم وأبرز العناية الفائقة بأمورها وما كانت تعج به من حركة فكرية، وقد أوضح ما استبدل به العلم بين معاصريه، فقال:

> يعلم المطالع لهذا الكتاب أن الزمان أخنى على معظم ما مر ذكره من المدارس والمعاهد العلمية، ولم نذكر ما أباده إلا للتذكار وتنبيه القوم على ما أسس أسلافهم من المجد، ثم قام من بعدهم خلف أضاعوا العلم ودياره، وطمسوا معالمه وآثاره، حتى أصبح العلم عندهم جبة وعمامة كبيرة، واحتفاظاً برسوم ابتدعوها وتداولوها، وحفظ خرافات يأخذونها عن العوام وعجائز البيوت، وفخفخة وأنساباً ما أنزل الله بها من سلطان، واختراع كرامات للعظام والرفات، وعقولاً جامدة وأفهاماً كاسدة[91].

وكما قارن عبد القادر بدران بين التدهور الذي وصل إليه وضع العرب والمسلمين في عصره، فقد عرف لوتورنو وغيره حقيقة أن الشعوب التي كانت على عهدهم تمارس طقوساً تخلفية وتعيش في أمية وجهالة، كان أسلافها يتمتعون بصورة أخرى، يمثل العلم والإيمان بالكلمة أساساً رئيساً من أسس بنيانها الراقي

---

(٩١) بدران، عبد القادر (ت ١٣٤٦هـ) / منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. ـ دمشق: المكتب الإسلامي، د. ت، ص ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

الذي اندثر تحت وطأة الانسلاخ عن العقيدة والفكر النقي، إلى الدروشة والفكر المشوش اللذين اختلطت فيهما حقائق العلم بكم هائل من زخم الجهل الدراويشي.

فإذا كان هو وغيره يتحدثون بحسرة عن خلف تعشعش الأمية بين ظهرانيهم ويمثلون صورة الإسلام لإنسان الغرب الذي لا يعرف عن تاريخ العرب والمسلمين إلا أقله، فقد أرادوا إعطاء هذه الأمة بعض حقها في حضارة الإنسان وأرادوا إظهار جانب من ريادتها للعلم والمعرفة، فكان أن كتب جملة منهم عن حضارة العرب والمسلمين من مثل آدم متز الذي يعقد مقارنة طريفة بين وضع المكتبات في العالم الإسلامي والعالم الغربي.

فيعرض لوضع المكتبات في عصور الازدهار الإسلامي وما كان بعضها يضمه من كتب تصل إلى مئات الآلاف وما كانت تحظى به من رعاية واهتمام يفوقان الوصف ثم ينتقل إلى وصف وضعها في الغرب في الفترة الزمنية نفسها فيقول:

> ولنذكر ما كان في بعض خزائن كتب في الغرب على سبيل المقارنة: كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتاباً، وفي مكتبة دير البندكتين عام ١٠٣٢ ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ستة وتسعون

كتاباً فقط[٩٢].

أما زيغريد هونكه مؤلفة (شمس العرب تسطع على الغرب. . .) فتقدم مقارنة طريفة صاغتها بأسلوب قوي مؤثر لتعلن لمعاصريها أن ما يرونه من تخلف وأمية يلحقان بشعوب العالم العربي والإسلامي ليست غير أمر طارىء فما كان أسلاف هؤلاء إلا سادة العلم والحضارة.

فتقول هونكه في مقارنتها:

وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم، لدرجة أنه عام ١٣٩١م لم يكن في دير القديس جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط، بينما هذا كله يحدث في الغرب، كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية ويقرأون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها ويجودون ذلك معاً بلحن جميل عن ظهر قلب، ثم يتقدمون خطوة تلو الأخرى في المبادىء لقواعد اللغة وكان الدافع إلى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في

---

(٩٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. ــ ط ٤. ــ القاهرة: مكتبة الخانجي، وبيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م، ١/ ٣٢٣.

أن يكـونـوا مسلمين حقـاً، كمـا يجب أن يكـون المسلم فلم يجبرهم أحد على ذلك، بل اندفعوا إليه عن رغبة وإيمان، لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضاً، فالكتاب المقدس لا يجد إليه سبيلاً إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته. . ولم تكن هناك حاجة تدعو الشعب في تلك العصور إلى تعلم اللاتينية، بل لم تكن هناك أية رغبة في تعليم الشعب أو تثقيفه، وعلى خلاف ذلك كان الحال في العالم الإسلامي، لقد اهتمت الدولة بتعليم الرعية ولم تلبث أن جعلت من التربية واجباً ترعاه(٩٣).

وتمضي هونكه في حديثها الماتع الذي استغرق فصلاً كاملاً هو الثامن الذي عنونته بـ(شعب يذهب إلى المدرسة) لتصف الرقي العلمي. . والتقدم الثقافي والتطور في النظام التربوي عند العرب والمسلمين في وقت كان الغرب يعيش فيه جهالة عمياء وأمية بائسة.

مرحلة الأمية التي يتحمل وزر تفشيها وانتشارها التصوف الخرافي والدروشة وما أعقبها من تقديس للأشخاص وانكباب على الاعتقاد بالأولياء وتشييد الأضرحة على المقابر. . وإزهاق

---

(٩٣) شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوروبا ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. ـ بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، ص ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

الزمن في أعمال مقيتة ليست من عقيدة ولا من علم، استطاع بعض دعاة العودة إلى روح الإسلام الصافية النقية من دحرها في مناطق محددة من العالم العربي والإسلامي دحراً تاماً شاملاً مثل ما فعل محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية. ولكنها وهي ترتع وتحظى بتأييد في أصقاع كثيرة من العالم العربي والإسلامي ستكون عامل قهر وسلب لأي توجه مناهض للأمية، فالخلاص من الأمية يكون بتخليص الفكر في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي من ربقة التقديس لأفراد أو أشخاص أو اعتقاد في ولي أو السير وراء درويش، أو التقزم أمام مقابر وأضرحة تحمل أجداثاً رحلت بمحاسنها أو مساوئها إن كانت.

الجناية على التعليم:

والحديث عن تطوير نظم تربوية لن يجدي قبل الخلاص من بقايا وثنية شابت العقيدة فألهت الإنسان عن السعي نحو العلم متسلحاً بإيمان نقي لا مكان فيه لاعتقاد بدرويش أو ولي.. أو غير ذلك، وكذلك إعطاء الفرصة لروح التجديد والانطلاق نحو عوالم أرحب فكرياً تعين على تشييد بنية ثقافية معاصرة تلتحم بأصالة الماضي قبل عصور الانحدار.

والمؤسف أن جناية الأمية التي ورثناها بفعل العوامل التي

أشرنا إليها سابقاً قد تركت آثاراً ذات أبعاد خطيرة على حاضر العالم العربي، يعاني منها اليوم، وقد يعاني منها مستقبلاً، أوضح جوانب منها الدكتور عبد اللّٰه عبد الدائم في دراسة بعنوان: «تطوير التربية العربية لمواجهة الصراع العربي الإسرائيلي، فلسفة التربية والتحدي الإسرائيلي» ذهب فيها إلى أن النظام التربوي في البلدان العربية ما زال أيضاً مقصراً عن مداه كماً وكيفاً وهو أمر طبيعي ما دامت التربية جزءاً من كل، فالتقدم الكمي في نظام التربية رغم ما عرفه من خطى سريعة أحياناً ما تزال أمامه أشواط كبيرة عليه أن يقطعها تشهد على ذلك المعدلات الإجمالية غير الصافية للمسجلين في مراحل التعليم المختلفة فهي في التعليم الابتدائي لا تجاوز ٨٢ بالمائة من فئة العمر المقابلة وفي التعليم الثانوي لا تعدو ٣٨ بالمائة، وفي التعليم العالي لا تربو على ٩ بالمائة، أما الأمية فما تزال نسبتها إلى مجموع السكان قرابة ٦٠ بالمائة، معنى هذا أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية ماضية على ما هي عليه، فإن المنطقة العربية سوف تعجز عن تعميم التعليم الابتدائي في نهاية هذا القرن وسيظل خارج التعليم الابتدائي قرابة ٨ ملايين طفل، وخارج التعليم الثانوي قرابة ١٦ مليون متى، ونحن في هذا كله نغض الطرف عن مرحلة رياض الأطفال على أهميتها، كما لا نتحدث عن أشكال التعليم غير النظامي..

ويخلص الدكتور عبد الدائم إلى أن ضعف التقدم النوعي في التربية في الوطن العربي أدهى وأمر وأن الحديث عن نقائض هذا التطور يستغرق الصفحات الطوال. . وأن التربية في البلاد العربية ما تزال تشكو في محتواها وبناها من آفتين: أولاهما ضعف ارتباط النظام التربوي ومناهجه بحاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة، والثانية عدم وضوح الفلسفة التربوية التي تثوي وراء هذا النظام(٩٤).

ولعل من الضروري الإشارة إلى أن التعليم يحتاج إلى مواكبة المتغيرات العامة من جهة، وحاجات الإنسان من جهة أخرى، ذلك لأهمية قضية تطور النظم التربوية وضرورة قيامها على أسس مدروسة وفق مقارنات فعلية أفقية وعمودية مع فلسفة المجتمع العربي القائمة أساساً على نظرة الإسلام للكون والحياة والإنسان، والمنطلقة من ذلك إلى أسس اجتماعية لا تغفل حضارة هذا المجتمع، وثقافته، ونظامه العام ولا تنفصل عما يخضع له من متغيرات في كافة المجالات، بل ولا بد من ترويض معطيات التطور من اقتصاد وتنمية، وتكنولوجيا ووسائل مساعدة ونحوه لصالح تطور هذه النظم التي هي أيضاً تقوم على أسس نفسية

---

(٩٤) مركز دراسات الوحدة العربية / الأبعاد التربوية للصراع العربي الإسرائيلي وقائع المؤتمر العلمي الذي نظمته كلية التربية بجامعة الكويت. ــ بيروت: المركز، ١٩٨٦م، ص ص ٣١ ــ ٣٢.

محورها بالدرجة الأولى الإنسان ومتابعة إنمائه الشامل وفق نظرة ترتكز على عدم الفصل بين العلم والتعلم منذ ولادة الإنسان ومواكبة متغيراته مما يلازمها من تطورات تحتاج بادىء الأمر في موضوعها هذا إلى تكوين ثقته بنفسه وبحضارته، وبقدراته الذهنية والنفسية دون أن يكون في خطوط منهجية النظم التربوية والتعليمية ما يغفل هذه النقطة ويركز عليها، وقد يتضاءل ذلك مع الأسس الفكرية التي قوامها هذا الكم من المعلومات التي أوردناها في هذا الموضوع بمثل ما يمكن أن يعزز قيمة التراث العربي ويبني للقاعدة الفكرية العربية جذوراً توفيقية بين ماضيها وحاضرها بحيث يجعل الحديث أو الاستئناس بماضي العرب وبمنجزاتهم ليس من باب التذكر أو الاعتداد، بل يربطه في خيط موصل يغدو من باب التواصل والأداء والتنفيذ لخطوط هذه الأسس الفكرية الهامة التي تقود إلى ذلك التواصل خلقاً وإبداعاً، فتطوير نظم التعليم تنطلق إلى تطوير مناهجها وهذا بدوره يعنى بهذه الأسس الرئيسية التي إذا ما قامت منهجة النظم التربوية على محاورها بدقة وشمول فإننا سنودع الأمية وندفن معها كومة من الرماد لطخ بها وجه الحقيقة ولعله سينتج من ذلك ما يضمن لنا مردوداً فعالاً في المجال الثقافي والعلمي والعملي، وكفاية تؤهل لخلف هذه الأمية أن يلحقوا بسلفها.

• • •

Bibliotheca Alexandrina
0436782